وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون تيارت

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط موسومة بـ:

ابن الخطيب في غرناطة من منحة التمكين إلى محنة الاغتيال

714هـ-1313م/776هـ-1374م

من إعداد الطالب:

باية أحمـــــــــد

بإشـــــــــراف:

أ.د بوخاري عمر

أعضاء لجنة المناقشة:

الأستاذ	الدرجة العلمية	الصفة
د. طويلب عبد القادر	أ.محاضر	رئيسا
أ.د بوخاري عمر	أ. التعليم العالي	مشرفا
د. حاكمي الحبيب	أ. محاضر	مناقشا

السنة الجامعية: 2022م-2023م/1443هـ-1444هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ

سورة يوسف: الآية 111

إلى قبس أنار درب عمري فسرت بهديه إلى مثلي وفخري واعتزازي ...

والدي

إلى من جعل الله من نبض قلبها أول صوت يسمع ومن دفء حضنها أول مأوى يسكن إلى التي جعل الله الجنة تحت أقدامها ...

والدتي

شكر و امتنان

الحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث بالخير والبركات، نبينا محمد أكمل الناس خلقا وأغزرهم علماً وأسماهم مثالا وأعلاهم همة. أما بعد فإني أتوجه بالشكر لله تعالى على ما أولاني من عظيم نعمه وكبير آلائه، فلله الحمد أولاً وآخراً، ثم إني ليشرفني وقد وفقني الله عز وجل لإنجاز هذا العمل أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى الأستاذ الدكتور بوخاري عمر الذي تعهد هذا البحث بالإشراف عليه وتتبعه في كل مراحله، و الشكر موصول أيضا لكافة أساتذتنا الكرام الذين رافقونا طيلة مشوارنا الجامعي. و إلى كل من ساهم من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا العمل، لكم مني كل الشكر و التقدير.

قائمة المختصرات

تح : تحقيق

تع : تعليق

تر: ترجمة

تق : تقديم

ج : جزء

م : مجلد

ص : صفحة

ط : طبعة

م: ميلادي

هـ : هجري

الفهرسة

مقدمة. 01
الفصل الأول: لسان الدين بن الخطيب نسبه ومولده. 05-32
المبحث الأول: نسبه. 05
المبحث الثاني: مولده و نشأته. 14
المبحث الثالث: إنجازاته العلمية. 24
الفصل الثاني: إبن الخطيب العالم والسياسي. 33-60
المبحث الأول: شيوخه وتلامذته. 33
المبحث الثاني: حنكة ابن الخطيب في عالم السياسة. 41
المبحث الثالث: عبقرية أدائه الإداري من خلال الرسائل الديوانية 50
الفصل الثالث: ابن الخطيب بين النكبة والإغتيال. 61-86
المبحث الأول: المحنة والإستدراج. 61
المبحث الثاني: المؤامرة والإغتيال. 71
المبحث الثالث: ثناء العلماء عليه. 79
خاتمة. 87
الملاحق. 91
قائمة المصادر المراجع. 108
فهرسة الموضوعات

مقدمة

شهد العالم الإسلامي تغيرات سياسية كبيرة، أدت إلى ظهور العديد من الدويلات التي تصارع أفرادها للوصول إلى السلطة، واستعملوا كل الأساليب لتحقيق ذلك، حتى وإن كانت هذه الأساليب والطرق غير مشروعة كالوشاية والاغتيال. وككل الدول لم تسلم الأندلس من هذه الظاهرة والتي راح ضحيتها رجال كان لهم تأثير كبير في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية وحتى الدينية، ومن بين المفكرين الذين قتلوا غدرا نجد لسان الدين بن الخطيب الذي كان له التأثير البارز في الحياة السياسية، فكانت نكبته من أكثر النكبات مأساوية في تاريخ الأندلس. وعليه جاء الموضوع بعنوان "**ابن الخطيب في غرناطة من منحة التمكين إلى محنة الاغتيال**"

جاء الموضوع بهذا العنوان نظرا لقناعتي التي باتت تزيد يوما بعد الآخر وذلك بعد أخذ ورد مع الدكتور المشرف حول طبيعة البحث في جانب من جوانب الحياة بالأندلس، فآثرت شخصية ابن الخطيب كنموذج منفرد يعكس الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والعلمية، وبهذا أكون قد قدمت حوصلة شاملة حول الأندلس في هذا القرن.

أما اختيار الموضوع فعادة ما يتعلق بأفكار الباحث واهتماماته. ففيما يتعلق بالدوافع الشخصية فأرى في تاريخ الأندلس وحضارتها ذلك المجد الذي يجب معرفة تفاصيله للاعتزاز به واستنطاق العبر من أحداثه، وموضوع ابن الخطيب خصيصا كان النموذج الذي يعكس التطور الحاصل في الأندلس. أما بالنسبة للدوافع الموضوعية فهذا الموضوع وإن كانت فيه دراسات سابقة لازال بحاجة إلى كشف بعض الخفايا والحقائق وإظهار بعض التفاصيل و إن كانت بسيطة. ولا أخفي أنني عانيت كثيرا في طريقي لإنجاز هذا الموضوع من مشكلة ضيق الوقت خاصة مع كثرة الالتزامات والأولويات. ومما يجعل هذا الموضوع جديرا بالدراسة والبحث كونه يتعلق بالفتن والنكبات الناتجة عن الوشاية، والتي كانت سببا في اغتيال عقول وهبت حياتها لخدمة الأمة الإسلامية.

ويعالج موضوع البحث الإشكالية الرئيسة الآتية :

ماهي المواهب والملكات التي جعلت ابن الخطيب يتربع على عرش الوزارة في دولة بني الأحمر؟ وماهي الأسباب الخفية التي جعلت أعداءه يقتلونه بتلك الطريقة؟

ثم تفرعت هذه الأخيرة إلى إشكاليات فرعية وهي: كيف نشأ لسان الدين بن الخطيب؟ وما ميزه ليكون بهذه المكانة؟ ماهي آثاره و إنجازاته؟ لماذا أصبح ابن الخطيب يضرب به المثل في السياسة؟ وماهي إسهاماته في مملكة غرناطة؟ وأخيرا كيف كانت نهاية هذا العالم الذي ذاع صيته في مختلف الأمصار؟

وفي بحثي عن الإجابة عن هذه التساؤلات اتبعت المنهج التاريخي التحليلي، كما اعتمدت المنهج التأويلي في بعض المسائل بكل تواضع بعد الإطلاع على بعض الدراسات. واعتمدت خطة مكونة من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وملاحق.

أما **المقدمة** فتناولت فيها توطئة للموضوع مع ذكر دواعي اختياري له وتحديد الإشكاليات وأهمية دراسته، والمنهج المتبع، كما قدمت فيها نقدا لبعض المصادر التي اعتمدت عليها.

وأما **الفصل الأول** فتناولت فيه تحديد اسمه الكامل وتاريخ ولادته وألقابه، كما توقفت فيه عند أهم المحطات في نشأته فذكرت أسرته والبيئة التي عاش فيها ومدى تأثيرها في حياته وتكوينة العلمي والثقافي، وختمت هذا الفصل بأهم إنجازاته العلمية.

وفيما يتعلق **بالفصل الثاني** فذكرت شيوخ وتلامذة ابن الخطيب، وكذا ولوجه عالم السياسة وانغماسه فيه، إضافة إلى ذلك تناولت عبقريته الإدارية من خلال رسائله السلطانية.

و**الفصل الثالث والأخير** تناولت فيه محنته التي كانت بداية النهاية بالنسبة له وذكرت أيضا أعداءه والتهم التي نسبوها إليه واغتيالهم له بعد سجنه، وختمت هذا الفصل ببعض أقوال العلماء والأكابر وثنائهم عليه.

وتطلب موضوع الدراسة الموسوم بـ"**ابن الخطيب في غرناطة من منحة التمكين إلى محنة الاغتيال**" الاعتماد على جملة من المصادر والمراجع التي سأذكر بعضها فقط، ولعل أهم هذه المصادر كتاب **(الإحاطة في أخبار غرناطة)** لصاحبه لسان الدين بن الخطيب الذي ذكر فيه ترجمة لنفسه أبعد بها الغموض والشك عن أصله ونسبه. إضافة إلى هذا اعتمدت على كتاب **(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب)** لمؤلفه أحمد بن محمد المقري التلمساني والذي خص أربعة أجزاء من هذا المؤلف لابن الخطيب، في حين كانت الأربعة أجزاء الأولى خاصة بتاريخ الأندلس وحضارتها. فتناول الكتاب مادة خصبة ساعدتني كثيرا في موضوع دراستي. فتحدث الكاتب عن حياة لسان الدين من مختلف الجوانب. واعتمدت أيضا على كتاب **(نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان)** لكاتبه اسماعيل بن يوسف بن محمد ابن الأحمر، فقد عاصر هذا المؤرخ ابن الخطيب وكتب عنه وذكر المحطات الكبرى من حياته. هذا ولا ننسى كتاب **(رحلة ابن خلدون)** لمؤلفه الغني عن التعريف عبد الرحمان بن خلدون، والذي عاصر هو الآخر ابن الخطيب ورافقه في المغرب وكتب عن محنته في ديار الغربة. أما المراجع فمن أهم المراجع التي اعتمدت عليها أذكر كتاب **(ابن الخطيب من خلال كتبه)** لمحمد بن أبي بكر التيطواني الذي خصص الجزء الأول من هذا للكتاب للحديث عن حياة ابن الخطيب وألقابه وحياته في المغرب لكنه أهمل فتنته ومقتله، في حين تناول في الجزء الثاني من كتابه الأخلاق والفلسفة عند ابن الخطيب. وكذلك **(ديوان ابن الخطيب)** الذي حققه محمد مفتاح وجمع جل أشعار ابن الخطيب فيه. إضافة إلى جملة من المصادر والمراجع الأخرى مثل: **(لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين)** لحسن الوراكلي ،وكتاب **(دولة الإسلام في الأندلس)** لمحمد عبد الله عنان، وكتاب **(تاريخ الفكر الأندلسي)** لآنخل جنثالث بالانثيا.

الفصل الأول : لسان الدين بن الخطيب نسبه ومولده

المبحث الأول : نسبه

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، والسلماني نسبة إلى سلمان. وهو حي بن مراد من عرب اليمن القحطانية، وقد دخل الأندلس عقب الفتح منهم جماعة من الشام ومنهم سلف لسان الدين،[1] فسكنوا قرطبة أولا ثم طليطلة ثم غرناطة.[2] إن هذا اللقب يغلب عليه ولاسيما في الغرب، حيث كان يعرف ابن الخطيب السلماني، أما لسان الدين فيقول لنا ابن الخطيب في مستهل ترجمته لنفسه في الإحاطة : إنه يلقب من الألقاب المشرقية، ولم يقل لنا متى وفي أي ظرف أسبغ عليه هذا اللقب.[3] ويلقب من الألقاب المشرفة بلسان الدين الوزير الشهير، الطائر الصيت، المثل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة والعلوم على اختلاف أنواعها،[4] وقد كانت أسرته تحمل اسم الوزير إلى أن جاء جده سعيد فعرفت باسم الخطيب. [5]

قال سليل السلاطين الأمير العلامة إسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بأمر الله محمد بن الأحمر نزيل فاس رحمه الله في كتابه المسمى **(فرائد الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان)** في حق المذكور مانصه : "ذو الوزارتين، الفقيه الكاتب أبو عبد الله بن محمد الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببلدة **لوشة**[6] عبد الله بن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن

[1] لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1973، ج1 , ص 18-19

[2] ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، تح: عبد القادر أحمد عطا عبد الستار، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ص18

[3] ابن الخطيب ،الإحاطة في أخبار غرناطة ، المصدر السابق، ج1، ص 18-19

[4] شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج1، تح: مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة الجنة، القاهرة، 1939، ص186

[5] ابن الخطيب، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار، تح: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2002، ص12

[6] لوشة : مدينة بالأندلس من أقاليم البيرة، بينهما ثلاثون ميلا . الحميري محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1975، ص513

عبد الله، ابن الفقيه الصالح ولي الله الخطيب سعيد، السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب"[1]

وقال القاضي ابن خلدون المغربي المالكي في تاريخه الكبير، عندما أجرى ذكر لسان الدين، مانصه: "أصل هذا الرجل من لوشة على مرحلة من غرناطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها يسمى بالمرج، وعلى واد شنجيل–ويقال شنيل– المخترق في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال، كان له بها سلك معدود في وزرائها، وانتقل أبوه عبد الله إلى غرناطة، واستخدم لملوك بني الأحمر واستعمل على مخازن الطعام"[2].

وقال غيره: "إن بيتهم يعرف في القديم ببني الوزير، ثم في الحديث ببني الخطيب. وسعيد جده الأعلى أول من تلقب بالخطيب، وكان من أهل العلم والدين والخير، وكذلك سعيد جده الأقرب كان على خلال حميدة، من خط وتلاوة وفقه وحساب وأدب، خيرا، صدرا، توفي عام ثلاثة و ثمانين وست مائة، وأبوه عبد الله كان من أهل العلم و الأدب والطب، وقرأ على أبي الحسن البلوطي، وأبي جعفر بن الوزير، وغيرهما، وتوفي بطريف عام واحد وأربعين وسبع مائة . قال ابنه لسان الدين صاحب الترجمة :"أنشدت والدي أبياتا من شعري، فسر وتهلل، وارتجل رحمه الله تعالى :

الطّب والشّعر والكتابة سماتنا في بني النَّجابه

هي ثلاث مبَّلغـــات مراتبًا بعضها الحجابَه [3]

وقد عرف لسان الدين بألقاب مختلفة نبدؤها بذي الوزارتين: ويعني لقب ذوالوزارتين الجمع بين خطتي السيف والقلم، فتسند إلى حامل هذا اللقب قيادة الجيش ورئاسة ديوان

[1] المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، ج5، ص7.

[2] نفسه، ص8

[3] المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج1، ص 187 .

الكتابة، وهذا ماحصل مع لسان الدين بن الخطيب في عصر أبي الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة الذي ألقى إليه بخاتمه وقلده قيادة الجيش .[1]

ولقب بذي العمرين لإصابته بداء الأرق طوال حياته، فكان يمضي لياليه في الكتابة والتأليف فيقول: "فاتخذت الليل جملا لهذه المطية وامتطيت غارب العزم ونعمت المطية، بحيث لا مؤانس إلا ذبال يكافح جيش الدجى، ودفاتر تلقح الحجى، وخواطر تبتغي إلى سماء الإجادة معرجا"،[2] وقال في كتابه **(الوصول لحفظ الصحة في الفصول):** العجب مني مع تأليفي لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب، وعملي لذلك لا أقدر عل مداواة داء الأرق الذي بي. وبالرغم من أن الأرق أو السهاد هو داء إلا أن ابن الخطيب استطاع أن يستخدمه للصالح العام، وهو من أهم الأسباب التي ساعدته ليخلف لنا هذا الإنتاج العلمي الكبير .

أما ذو الميتتين فذلك بسبب الفاجعة التي أنهت حياته بعد أن تم خنقه في زنزانته ودفنه ,و لم يشفى ذلك غليل أعدائة فأعادوا نبش قبره وقاموا بحرقه ليقتل مره ثانية. وفيما يخص لقب ذو القبرين وهو آخر ما لقب به فذلك لكونه دفن للمرة الأولى بعد خنقة وأخرج من قبره وأحرق كما سبق لنا ذكره ودفن للمرة الثانية .[3]

نشأ وتربى في أحضان أسرته التي عرفت بالأصالة علماً وجاهاً، ونشأ في العاصمة غرناطة حيث تلقى بها دراسته على أيدي جهابذة العلماء والأدباء في عصره، فقد كانت غرناطة في ذلك العصر أعظم مركز للدراسات العلمية والأدبية في مغرب العالم الإسلامي.[4]وهذه البيئة كان لها الأثر الكبير في حياة ابن الخطيب، لأنه تربى في هذه

[1]ابن الخطيب، الإشارة إلى أدب الوزارة، تح: محمد كمل شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004، ص52

[2]الوراكلي حسن، لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين، مجلة كلية الآداب بتيطوان، المغرب، 1987، ص102

[3]التطواني محمد بن أبي بكر، ابن الخطيب من خلال كتبه، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1954،ج1، ص44-45

[4]ابن العماد شهاب الدين عبد الحي أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير، بيروت ، 1986، ج1، ص69 .

المدينة التي كانت مهدا للعلم والعلماء، وهذا لكون المدن الأخرى قد شهدت تقهقرا ملحوظا ما جعل غرناطة مقصد العلماء وحصنهم الحصين، وبالرغم من توتر الأوضاع السياسية في الأندلس عامة وغرناطة خاصة إلا أن الإنتاج الفكري كان متواصلا، فأقيمت الحلقات العلمية والفكرية وأنتجت المدرسة الأندلسية الكثير من العلماء والأدباء، ومن بينهم ابن الخطيب، فكان عبقرية متعددة النواحي، فهو طبيب وفيلسوف، وهو كاتب وشاعر من الطراز الأول. وهو مؤرخ بارع، وهو وزير وسياسي، ثاقب النظر قوي الإدراك .[1]

يقول ابن الأحمر:"شاعر الدنيا، وعلم المفرد والثنيا، وكاتب الأرض إلى يوم العرض. لايدافع مدحه في الكتب، ولا يجنح فيه إلى العتب"[2], وبالرغم من ظهور العديد من الشعراء عبر التاريخ إلا أن ابن الخطيب كان موهبة فريدة، فقد كان شعره يجمع بين أغراض مختلفة : بين مدح ومديح نبوي و استصراخ ورثاء وغزل .. وما إلى ذلك من أغراض أخرى، يأتلف فيها مع سابقيه و معاصريه.[3]

وابن الخطيب من خلال هذه الأغراض الشعرية، تجده تارة يعبر تعبيرا حسيا وسطحيا : فهو يصف الأشياء في حدود ما تراه العين على أرض واقع رتيب وتارة ثانية يتجاوز هذا الوضع إلى لون من الشعر و أساسة التركيب معتمداً في ذلك على ما استوعبته ذاكرته من الموروث الشعري : فهو يجمع الأشياء : وينتقي منها ما يصلح لصناعته في غرض من الأغراض، وتارة ثالثة، نجد الشاعر يتجاوز هذين الخطين إلى نوع آخر من الشعر، تقوم عناصره على الخلق والإبداع . كما أبدع ابن الخطيب في شعره وموشحاته فنذكر أشهرها:

---

[1] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص18

[2] ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف بن محمد، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تح: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1967، ص243

[3] الطريسي أحمد، شاعرية ابن الخطيب، مجلة كلية الآداب، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، تطوان، المغرب، 1987، العدد 2، ص249 .

جادَكَ الغيْثُ إذا الغيْثُ هَمــى يا زَمانَ الوصْلِ بالأندَلــُسِ

لمْ يكُنْ وصْلُكَ إلاّ حُلُـــــما في الكَرَى أو خِلسَةَ المُخْتَلِسِ

إذْ يقودُ الدّهْرُ أشْتاتَ المُنَــى يَنْقُلُ الخَطْوَ علَى ما يُرْسَـمُ [1]

وهذه الموشحة هي من أحسن ما في هذا الفن، وقد جمع فيها بين المدح والغزل والوصف ومن الجدير بالذكر أن لسان الدين يؤكد ما ذكره ابن خلدون وغيره عن أولية الأندلسيين في اكتشاف الموشحات فيقول : "ومما قلته من الموشحات التي انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها".

وكان من الطبيعي أن يتأثر لسان الدين بالسياسة ويقتدي بوالده ويحذو حذوه، لكون هذا الأخير شغل منصب الوزير للسلطان يوسف بن اسماعيل بن الاحمر[2] (733-755/1340-1354)، وبعد وفاته دعي ابن الخطيب الابن ليشغل منصب والده وكان عمره 28عاما كأمين السر لرئيس ديوان الإنشاء أبي الحسن علي بن الجياب ومن هذا الباب دخل ابن الخطيب عالم السياسة، وبعد وفاة ابن الجياب[3] تقلد لسان الدين منصبه و أظهر براعة وكفاءة كبيرة في كتابة الرسائل إلى الملوك والسلاطين، ويمكننا القول أن هذه الفترة كانت المرحلة الذهبية في حياته، ويتحدث ابن الخطيب عن تلك الفترة فيقول في كتاب الإحاطة :"فقلدني السلطان سره، ولما يستكمل الشباب، ويجتمع السن معززة

[1] المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج5، ص11

[2] هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي أمير المسلمين بالأندلس، أبو الحجاج، تولى الملك بعد أخيه في الثالث عشر من ذي الحجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية، وسنه إذ ذاك خمسة عشر عاما وثمانية أشهر، واستقل بالملك، واضطلع بالأعباء، وتملأ الهدنة ماشاء.(ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة المصدر السابق، ج4، ص318)

[3] هو علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن الأنصاري من أهل غرناطة يكنى أبا الحسن، ويعرف بابن الجيَّاب، شيخ لسان الدين بن الخطيب، وشيخ طلبة الأندلس رواية وتحقيقا، ومشاركة في كثير العلوم، قايما على العربية واللغة، إماما في الفرايض والحساب، عارفا بالقراءات والحديث، متبحرا في الأدب والتاريخ، مشاركا في علم التصوف، فذا في المسايل الأدبية البيانية.(ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة المصدر السابق، ج4، ص125)

بالقيادة، ورسوم الوزارة، واستعملني في السفارة إلى الملوك، واستنابي بدار ملكه، ورمى إلى يدى بخاتمه وسيفه، وائتمنني على صوان حضرته، وبيت ماله، وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه".[1]

وقد عرف ابن الخطيب في السفارة فامتلك كل المؤهلات والخصال و المزايا التي يمكن أن يتحلى بها السفير، وياما أكثرها ! كانت تتوفر في لسان الدين بن الخطيب، فقد كان مثلاً في الصدق وهي صفة أساسية بالنسبة للرسول، وكم من حروب قامت ودول سقطت وجيوش هلكت بسبب كذبة من سفير. ومن خصال الرجل أيضا الإبانة وحضور البديهة نثرا وشعرا، فالسفير ملزم دوما بالرد السريع والإجابة بالكلام المناسب في الوقت المناسب للشخص المناسب، فهو يحافظ على استمرارية العلاقة بلاده والبلاد الأخرى من خلال حواره مع المبعوث إليه، وإذا كانت الرسائل التي يحملها السفير تعتبر حجة في التعبير عن علاقة هذه الجهة بتلك، فإن الحاجة إلى نطق السفير تظل الخطوة الثانية الحاسمة، وقديما لخص الحكماء، أمر الرسالة والرسول في هذه الكلمة الجامعة :"والكتاب يد والرسول لسان، فكلا اليد واللسان ضروري للنجاح في الحركات".[2]

وهكذا أمكننا أن نعرف أن هناك – على الأقل . ثلاث سفارات عهد بها لابن الخطيب .الأولى كانت عام 752 / 1351 عندما ورد سفيرا عن السلطان أبي الحجاج يوسف بن اسماعيل بن فرج إلى السلطان أبي عنان[3] بمدينة فاس. الثانية كانت سنة

---

[1] ابن الخطيب، أوصاف الناس في التواريخ والصلات تليها الزواجر والعظات، تح: محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، ص15

[2] عبد الهادي التازي، ابن الخطيب سفيرا ولاجئا سياسيا، مجلة كلية الآداب، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، تطوان، المغرب، 1987، العدد 2، ص41

[3] هو فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، أبو عنان، من ملوك الدولة المرينية بفاس الجديدة، نشأ محبوبا في قومه لفضله وعلمه، وولاه أبوه إمارة تلمسان، ثم ثار على أبيه وبويع في حياته سنة 749هـ(خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، لبنان، 2002، ج5، ص127)

755هـ / 1354م عندما ورد سفيرا عن أبي عبد الله محمد بن أبي الحجاج[1] الملقب بالغني بالله إلى السلطان أبي عنان مرة أخرى. الثالثة كانت إلى ملك قشتالة بدرو الأول الملقب بالقاسي.. ؟[2]

وترجع شهرة لسان الدين بن الخطيب في المقام الأول إلى كونه مؤرخاً، فمؤلفاته في التاريخ تعتبر مصدرا مهما لا يمكن للباحث الاستغناء عنها، فقد أرّخ لدولة بني نصر في غرناطة بصفة خاصة ، كما كتب عن الفترات التي قبلها من تاريخ الأندلس ، وفترة ملوك الطوائف خصص لها قريباً من ثلث القسم الثاني – الخاص بالأندلس – من كتاب أعمال الأعلام، وهو من آخر مؤلفاته. وفي كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة، يترجم ابن الخطيب لأمراء دولة بني زيري في غرناطة، كما يترجم لعدد من رجالات هذه الدولة كالوزير سماجة الصنهاجي، والفقيه ابن القليعي، ومؤمل مولى باديس بن حبوس، ومقاتل بن عطية، البرزالي، مما يعين الباحث على المقابلة – والتثبت – بين هذه التراجم وبين ما يذكره آخر أمراء بني زيري في غرناطة الأمير عبد الله بن بلقين عن تاريخ أسرته في كتاب التبيان .[3]

وإذا تحدثنا عن الفلسفة فلابد من ذكر لسان الدين، فقد تمتع بنفود البصيرة وصدق النظر في حقائق الحياة والأحياء ظاهرا وباطنا إجتماعيا ونفسانيا، كما تميز بالنقد الدقيق وقوة البديهة، وقد درس ابن الخطيب الفلسفة القديمة وتعرض لمختلف المدارس الفلسفية

---

[1] محمد بن يوسف أبي الحجاج بن إسماعيل ثامن ملوك دولة بني نصر بن الأحمر في الأندلس ولي بعد وفاة والده سنة 755هـ، واتسعت الدولة في أيامه وكان حازما داهية، استمر في الملك إلى أن توفي.(خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج7، ص153)

[2] التازي، نفسه، ص47

[3] الطيبي أمين توفيق، لسان الدين بن الخطيب مؤرخ ثبت لفترة ملوك الطوائف بالأندلس –القرن الخامس هجري – الحادي عشر ميلادي، مجلة كلية الآداب، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، تطوان، المغرب، 1987، العدد 2، ص185

الإشراقية والصوفية بالنقد، وكانت له ملكة التجريد متناهية المتانة فعمد في أوصافه وتحليلاته إلى الحقائق الثابتة في الطباع البشرية والأوضاع الإنسانية والنظم الاجتماعية، وأخرج لنا إنتاجا خالدا لايزال يتفق مع مانلحظه إلى الآن. ومن أقواله في الفلسفة :" إن العقل لا يهدى إلى الأفعال المنجية كما لا يهدى إلى الأدوية المخلصة من الأمراض وإن الفطرة السليمة قد تغني عن الصنائع والعلوم" وهنا يعتبر ابن الخطيب المعرفة أساس الفضيلة الخلقية ويرى أن الفطرة هي الينبوع الفياض.[1]

أما فيما يتعلق بالتصوف فنجد لابن الخطيب علاقة بالتصوف في الأندلس قبل نكبته فقد كتب شعرا بأمر من السلطان يوسف بن الأحمر الذي تشيع للصوفية وكان يميل لهم وأحضرهم في مجالسه. وأظهر ابن الخطيب في هذه القصيدة التي كتبها لمحات صوفية مثل :

من خَمرة السر المقدَّسة التي كلفت بطَاستهَا يدُ الحلاجِ

وأرت له الأشياء شَيئا واحدًا فغَدا يخاطبُ نفسه ويناجِي

ورأى ابن أدْهَم لمْحة من نُورها تلتاح بين مخارم وفجَاجِ

فغدا من صوف الصّفاء شعارُه واعتاضه من لبسة الدِيباجِ

لكن تصوفه في هذه الوقت كان ظرفيا، أما تصوفه الحقيقي الداخلي الناتج عن وعيه وإدراكه، والذي سيطر على فكره كان في المغرب بعد فقدانه لأشياء كثيرة في الأندلس مادية ومعنوية، وتجواله بين مدن المغرب ومخالطته للعلماء والزهاد. كل هذا دفع به إلى الخلوة والتأمل ومحاسبة النفس عما بدر منها في أيام العز والرخاء، وهو ما جعل ابن الخطيب يسلك منهجا معاكسا لما كان عليه في السابق وذلك بعد عودته إلى الأندلس، ويمكننا القول أن هذه الفترة من حياة ابن الخطيب وهذا النهج الذي اتبعه وتأليفه

[1] التطواني، المرجع السابق، ج2، ص12

لكتاب روضة التعريف بالحب الشريف، كان الثغرة التي دخل منها أعداؤه واتخذوها سببا وذريعة لإراقة دمه .[1]

من الصعب تصور أن الذي انتهينا للتو من الحديث عن مهنته وعلومه. استطاع أن ينجح بالموازاة مع مسؤولياته العليا في خدمة مملكة غرناطة في بلورة نشاط فكري كبير في مجال الطب ويقول كتاب سيرته أن الأرق المزمن الذي كان قد أصابه مكنه من استغلال الليل لكتابة أكثر من ستين مؤلفا في مواضيع تتسم بقدر كبير من الغني والتنوع كما فعل سلفه ابن سينا، ولكن للأسف لم يبلغنا منها إلا النصف وهي أيضا بالنسبة لأغلبها ما تزال تنتظر طريقها إلى النشر. فكان ابن الخطيب كشأن أبيه يهتم بالطب. وقد أتاح له وباء الطاعون الأسود الذي اجتاح الشرق الأوسط وأفريقية و أوربا بين 1346 و 1353 فرصة إثبات مقدرته على التفكير العلمي بخصوص هذا المرض .

ويصف ابن خلدون في "المقدمة" تأثير هذا الوباء بقوله لقد خضعت الحضارة في كل من الشرق والغرب. لتوغل مدمر يتعلق الأمر بالطاعون الذي دمر الأمم ومحا شعوبا بأكملها من سطح الأرض. وهي الفترة التي تقلد فيها ابن الخطيب مسؤوليات عليا وبلا ريب فهو الذي كان عليه أن يتخذ القرارات الضرورية لمحاولة الحد من انتشاره وقد دفعه هذا المشكل المأساوي للصحة العمومية والذي وقف طب عصره عاجزا أمامه إلى إعادة طرح النقاش حول التفاسير التي كانت قد أعطيت لهذه الأوبئة المخيفة والتي تتجدد بشكل منتظم. وإلى تدوين نتائج تفكيره في كتاب وهكذا عرف الوجود كتابه حول الطاعون .[2]

لقد كان ابن الخطيب يمثل بعبقريته، وقوة نفسه، وأصالة تفكيره، وروعة بيانه، وجزالة شعره، أعظم ماتمخضت عنه الأندلس الكبرى، من قبل من تلك النماذج العلمية والأدبية الباهرة، التي يزدان بها تاريخ التفكير الأندلسي. وكان بتعدد جوانبه، وسعة آفاقه،

[1] زمامة عبد القادر، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1996، العدد 28، ص78-79

[2] تيسيي جون فرنسوا، لسان الدين بن الخطيب رائد الصحة العامة، ترجمة مصطفى اكن ومساعدة مصطفى آيت يدير ومحمد إبوعجبان، المجلة الصحة المغربية، 2013، العدد5، ص48 .

أكثر من وزير وكاتب وسياسي وشاعر، كان مزيجا من عبقريات متعددة بلغ القمة في كل منها، ويندر أن تجتمع في شخص واحد، وكانت غرناطة تلك الأندلس الصغيرة، أضيق من أن تتسع لمثل عبقرياته ومن ثم فإنا نراه خلال حياته المضطربة، سواء في المغرب أو الأندلس، يرتفع حينا إلى الذروة، وأحيانا ينحدر إلى غمر المحنة، تلاحقه تلك القوى الخصيمة، التي تضيق بنبوغه، وخلاله اللامعة .[1]

[1] ابن الخطيب، الإحاطة، المصدر السابق، ج1، ص18 .

المبحث الثاني : مولده ونشأته

ولد ذو الوزارتين أبو عبد الله [1] الفقيه الكاتب محمد بن الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببلدة لوشة [2] في الخامس والعشرين من رجب 714هـ الموافق ل 16 نوفمبر 1313م, ونشأ في بيت علم وفضل وجاه، ويحدثنا ابن الخطيب بأن بيتهم كان يسمى ببني الوزير ثم سموا ببني الخطيب، وسبب هذه التسمية يرجع إلى عهد جده سعيد، وهو أول من استوطن من الأسرة مدينة لوشة، وكان عالما ورعا، وكان يلقى دروسه ومواعظه تحت أطلال برج يجاور أملاك أسرته، ويقع على الطريق الممتد من غرناطة إلى إشبيليه مارا بلوشة، ومن ثم فقد غلب عليه اسم الخطيب وأورث هذا اللقب لبنيه فعرفوا ببني الخطيب من ذلك الحين، ويحدثنا ابن الخطيب عن والده عبد الله وكان من أكابر العلماء والخاصة، ويترجمه لنا في الإحاطة. وقد ولد سنة 672 هـ واستقر حينا في غرناطة، ثم عاد إلى لوشة مقر بيتهم القديم، ثم عاد إلى غرناطة مرة أخرى ليلتحق بخدمة السلطان أبي الوليد إسماعيل وهو الذي جلس على عرش غرناطة في سنة 713هـ /1314م.

وبعد أن قتل السلطان أبو الوليد اسماعيل سنة 725 هـ (1325 م) خدم عبد الله من بعده، ولده السلطان أبا عبد الله محمد، ثم أخاه السلطان أبا الحجاج يوسف أعظم سلاطين غرناطة، وقد ولى العرش سنة 733هـ (1332 م). وخدم عبد الله في ديوان الإنشاء، مع الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبي الحسن بن الجيَّاب، وأسبغ عليه لقب الوزارة، ثم توفي قتيلا مع ولده الأكبر أخي لسان الدين، في موقعة طريف الشهيرة التي هزم فيها المسلمون بقيادة السلطان أبي الحسن المريني سلطان المغرب. والسلطان أبى الحجاج يوسف أشنع هزيمة، وذلك في جمادى الأولى سنة 741هـ (أكتوبر سنة 1340م)

[1] ابن الخطيب، جيش التوشيح، تح: هلال ناجي ومحمد ماضور، مطبعة المنار تونس، ص1

[2] ابن الأحمر، المصدر السابق، ص242

وسقطت على أثرها طريف والجزيرة الخضراء في أيدى النصارى، وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون في المغرب والأندلس مثلها منذ أمد بعيد .[1]

ومما رثي به والده لسان الدين وأخوه ما ذكره في الإحاطة في ترجمة أبي محمد عبد الله الأزدي إذ قال ما نصه : ومما كتب إلى فيما أصابني بطريف :

خَطْبٌ أَلَمَّ فَأَذْهَبَ الأَخَ وَالأَبَـــا رَغْمَاً لأَنْفٍ شَاءَ ذَلِكَ أَوْ أَبَـــا

قَدَرٌ جَرَى فِي الخَلْقِ لاَ يَجِدُ امْرُؤٌ عَمَّا بِهِ جَرَتِ المَقَادِرُ مَهْرَبـــا

إما جرعْتُ له فعُذْرٌ بيـــــنٌ قضتِ الدواهي أن تُحُلَّ له الحبا

لا كان يومهما الكـــريهُ فكم وكمْ فيه المجَلِّي والمصَلِّي قد كيـــا

يوم لوى ليّـــــــانَهُ لم يبق لا إسلام حدٌّ مُهنَّد الاّ نَبـــــــا

وتجَمَّعَتْ فيه الضلالُ فقـــابَلَتْ فيه الهدى فرَّقتْ أيدي سبَـــا [2]

أما التربية والنشأة ففي دار الملك غرناطة، ففي حجر النعمة والسعادة تربى، وفي قصور الكرامة شب، وترعرع نشأ على ما ينشأ عليه ذوو البيوتات الذين يجمع الله لهم بين رياسة الدين وسياسة الدنيا، فبكر به النبوغ ورافقه التوفيق فلم تأت السنة التي ودع فيها والده الحياة وهي سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، ولما يكتمل لسان الدين من عمره الثلاثين، حتى كان كما قال عن نفسه "مات الوالد فخلفني عالي الدرجة شهير الخطة مشمولا بالقبول، مكنونا بالعناية وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها،[3] فقلدني السلطان سره، ولما يستكمل الشباب، ومجتمع السن معززة بالقيادة، ورسوم الوزارة، و استعملني في

[1] ابن الخطيب، الإحاطة ,المصدر السابق، ج1، ص20-21

[2] المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج5، ص12

[3] التطواني، ابن الخطيب من خلال كتبه، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1954، ج1، ص39

السفارة إلى الملوك، واستنابي بدار ملكه، ورمى إلى يدى بخاتمه وسيفه، وائتمنني على صوان حضرته، وبيت ماله، وسجوف، حرمه، ومعقل امتناعه" .[1]

ونشأ لسان الدين على حالة حسنة سالكا سنن أسلافه، فقرأ القرآن على المكتب، الأستاذ الصالح أبي عبد الله بن عبد الولي العواد، تكتبا ثم حفظا ثم تجويدا، ثم قرأ القرآن أيضا على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي، وقرأ عليه العربية، وهو أول من انتفع به، وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جزي، و لازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الإمام أبي عبد الله بن الفخار البيري، شيخ النحويين لعهده، وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر، وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجياب، وروى عن كثير من الأعيان، كالمحدث شمس الدين بن جابر، وأخيه أبي جعفر، والقاضي أبي البركات بن الحاج، والشيخ أبي محمد بن سلمون، وأخيه أبي القاسم بن سلمون، وأبي عمرو بن الأستاذ أبي جعفر بن الزبي، وله رواية عالية، والأستاذ اللغوي أبي عبد الله بن بييش، والمحدث الكاتب أبي الحسن الثلثاني المسن، والقائد الكاتب أبي بكر بن ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم، والقاضي المحدث أبي بكر ابن شيرين)، والشيخ أبي عبدالله ابن الفقيه القاضي أبي عبدالله بن عبد الملك، والخطيب أبي جعفر الطنجالي، والقاضي أبي بكر بن منظور، والراوية أبى عبد الله بن حزب الله .

وعن أشهر أسلافنا المتأخرين القاضي أبي عبد الله محمد القرى القرشي، النفساني المولد والمنشأ والمقير، قاضى الجماعة بفاس، وعن الشريف أبي على حسن بن يوسف، وعن الخطيب الرئيس الراوية أبي عبد الله ابن مرزوق، ومن المحدث الفاضل الحسيب أبي العباس بن يربوع السبتي، والرئيس الكاتب أبي محمد بن عبد المهيمن العصري السبتي، والشيخ القرى أبي محمد بن أيوب الماتي، آخر الرواة من ابن أبي الأحوص، ومن أبي عثمان ابن ليون من أهل المرية، وعن القاضي أبي الحجاج المنقشافري)، من

[1] ابن الخطيب، الإحاطة، المصدر السابق، ج1، ص22

أهل زبدة، إلى غيرهم ممن يطول ذكره من أهل الأندلس، والعدوة العربية، والمشرق وإفريقية بالإجازة، وأخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا يحيى من هديل، ولازمه. [1]

وتأثر ابن الخطيب منذ صباه، بهذا الأفق السلطاني الذي عاش والده في كنفه، وتطلع إلى غزوه، فلما توفى والده سنحت الفرصة المرجوة، ودعي للخدمة مكان أبيه، وكان يومئذ فتى في الثامنة والعشرين من عمره، وتولى أمانة السر لأستاذه الرئيس أبي الحسن بن الجياب وزير السلطان أبي الحجاج وكاتبه الأثير .

تعلم ابن الخطيب الشعر والنثر على يد أستاذه رئيس ديوان الإنشاء أبي الحسن بن الجياب، وأظهر براعة كبيرة في كتابة الرسائل السلطانية. واستمر على هذا الحال إلى أن توفي أستاذه في الطاعون الجارف في شوال من سنة (749هـ/1349م) فخلفه ابن الخطيب في رياسة الكتاب ، ورئاسة ديوان الإنشاء، ومنحه السلطان أبو الحجاج يوسف رتبة الوزارة وألقابها. وكان كبير الوزراء يومئذ الحاجب أبا النعيم رضوان، وهو من أصل قشتالي، وقد سبي صبيا وربي في القصر السلطاني، وكان ابن الخطيب يحظى بتقديره وثقته. وهنا تألق نجم ابن الخطيب، وعظمت منزلته، وأغدق السلطان عليه عطفه وآثره بثقته، وجعله كاتب سره، ولسانه في المكاتبات السلطانية، وصدر منها بقلم ابن الخطيب يومئذ، طائفة من أبدع الرسائل الملوكية، التي ينعتها ابن خلدون ب(الغرائب)، لروعتها، وقد جمع ابن الخطيب الكثير منها فيما بعد في كتابه **(ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)**، وكذلك نقل إلينا المقري في نفح الطيب عدة منها.[2]

كان للزمان والمكان الذي ظهر فيه ابن الخطيب الأثر الظاهر في شخصيته وانجازاته خاصة الأدبية منها، فلو قدر لدارس الأدب أن يلتقي بكتبه غفلا عن إسمه

[1] المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج1، ص187

[2] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص22

لنسبها إلى الطابع الأندلسي وإلى مؤلفها ابن الخطيب، وذلك لبروز انتمائه إلى المدرسة الأندلسية فيها.

وقد شاء القدر أن يعيش هذا الرجل في زمن ساءت فيه أوضاع الأمة الإسلامية بصفة عامة، والأندلس بصفة خاصة، فقد انقسمت هذه الأخيرة شذر مذر وتقاتل أبناؤها من أجل السلطة، واستقوى عليها العدو، فاضطر لسان الدين أن بتأقلم مع هذه الظروف، فبعد ذلك الملك المترامي الأطراف و المدنية الباهرة والقصور الفاخرة والجنان الزاهرة والقلاع العامرة والمدارس العلمية التي أقيمت على البرهان والمعاهد الدينية التي أساسها الإيمان والقلاع الجهادية التي تحمي البلاد من العدوان، عادت الأيام تسترد ما جاءت به، فأخذت المصائب تتوالى الواحدة تلوى الأخرى وخفت نداء الجهاد وتقلصت أطراف البلاد، وفي هذا العصر الذي استفحل فيه الداء ظهر ابن الخطيب ليجد غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس، فكانت الحضن الذي آوى أعلام المسلمين، وكانت هذه المرحلة من تاريخ الأندلس حافلة بالأحداث السياسية، حيث تكالب بنو الأحمر على السلطة وجلل السيف جماعة كبيرة منهم. كل هذه الأحداث عاشها ابن الخطيب ما دفعه إلى استعمال كل ما يملكه من مواهب وذكاء وفطنة وحسن تدبير ليستطيع الحفاظ على حياته ويضمن استمرار مكانته وسلطته.

وقد أثّرت هذه الأحداث والآلام التي جرتها معها في ابن الخطيب فظهر ذلك في مؤلفاته الأدبية من شعر ونثر. وبالرغم من هذا التقهقر والتراجع السياسي الذي شهدته الأندلس في هذه الفترة إلا أن الحياة الأدبية كانت في أوج ازهارها وانتشارها حتى و أنها لم تكن ترقى إلى ما كانت عليه في الضفة المقابلة من البحر إلا أنها كانت تذكر بالمدرسة الأندلسية في أيام عزها وسلطانها، وذلك لكون غرناطة ملجأ لأقطاب العلم الذين فروا إليها بعد نزول القضاء ببلادهم،[1]

[1] التطواني، المرجع السابق، ج1، ص29-30

وكانت صلة الإخاء محكمة الربط بين أجزاء العالم العربي، وخصوصا بين فاس وغرناطة، فشاهدت كل منهما من الوفود وخصوصا غرناطة ما كان له الأثر الملموس في أدب لسان الدين الذى بحكم رعاية والده القريب من الدولة كان يحظى بالقرب والاستفادة من تلك المجالس الأدبية، وكانت لا محالة تترك في نفسه ما يثير اغتباطه ويذكي نشاطه فنشأ مغرما بحسب العلم كلفا بجمعه وتدوينه متأثرا بالحياة الأدبية التي كان لها سلطان على نفسه والتي فيها كان يجد هواه، فلم يسل عنها حتى في أيام رياسته وإقبال الدولة عليه، وقد سجل في كتبه التاريخية ومجاميعه الأدبية صورة حية تصور المجتمع الأدبي في ذلك العصر، وهي لا تختلف صورة عما عرف قديما مما يدل على أن الوسط الأندلسي في حياته الأدبية قد كان لا يزال محافظا على وحدته بعيدا عن آراء أصحاب الملل والنحل والأهواء لم يغزه ما غزا غيره من الأمم الإسلامية باسم الحرية الفكرية، وبذلك أصبح من السهل إدراك مدى تأثره بالعصر الأدبي الذي عاش فيه.[1]

وأولاد لسان الدين ثلاثة: عبد الله ومحمد وعلي، أما محمد فنال حظه من التصوف ولم يكن له إلا خدمة الملوك تشوف، وعليا كان خالصة السلطان وعبد الله تولى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مدبر الدولة.[2] ولا بد أن نشير لوصية ابن الخطيب رحمه الله لأولاده المذكورين لما فيها من الحكم والوصايا النافعة، فنذكر جزءا منها:

بدأ وصيته بحمد الله بما يليق بجلال قدره وأثنى على رسوله الكريم ثم قال:

و بعد، فإني لما علاني المشيب بغمته، وقادني الكبر في رمته، وادَّكرتُ الشباب بعد أمته، أسفتُ لِمَا أَضَعْت، وندمت بعد الفطام على ما رَضَعَت، وتأكد وجوب نُصْحى لمن لزمنى رعيه.....فقلت أخاطب الثلاثة الوَلَد، وثمرات الخلد، بعد الضراعة إلى الله في توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجمع تفريقهم، وأن يمن على فيهم بحسن الخلف، والتلافي من

[1] التطواني، المرجع السابق، ج1، ص 32
[2] المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج5، ص289

قبل التلف، وأن يرزق خَلَفهم التمسك بهدى السلف، فهو ولى ذلك، والهادي إلى خير المسالك.

اعلموا هذا كم من بأنواره يهتدي الظلال، وبرضاء ترفع الأغلال، وبالتماس قربه يحصل الكمال، إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرأت من يمينها الشمال، أني مودعكم و إن سالمني الردى، ومفارقكم و إن طال المدى..... ونصيحة تكون نشيدة واع ومبصر، تتكفل لكم بحسن العواقب من بعدى، وتوضح لكم في الشفقة والحنو قصدي، .....وكأني بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ، و بنشاطكم قد كسل، واستبدل الصاب من العسل، ونصول الشيب تروع بأسل، لا بل (السّام) من كل حدب قد نَسل، والمعاد اللحد ولا تسل، فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم آباء عسكر مجر، وغدا شيوخ مضيعة وهجر..... فاقتنوها من وصيه، ومرام في النصح قصيه، وخُصوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا، وحسبي وحسبكم الله الذى لم يخلق الخلق هملا، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملا، ولا رضي الدنيا منزلا، ولا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلا، ولتلقنوا تلقينا، وتعلموا علماً يقينا، أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبي، ويفترش التراب جنبي، ويسح انسكابي، وتهرول عن المصلى ركابي، أحرص مني على سعادة إليكم تُجلب، أو غاية كمال بسببكم ترتاد وتطلب، حتى لا يكون في الدين والدنيا أوْرَفَ منكم ظلاً، ولا أشرف محلا، ولا أغبط نهلا وعلا، وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولي الآذان، وتتلمحوا صبح نصحي فقد بان. ثم اقتبس من وصيه لقمان لابنه ووصية سيدنا إبراهيم الخليل واسترسل في نصحه فألم بكل النصائح، وعزز وصاياه بآيات من القرآن الكريم.[1]

ومما أثر أيضا في حياة لسان الدين وفاة زوجته، فيذكرها في كتابه نفاضة الجراب فيقول: وفي السادس لذى قعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة المذكور، طرقني ما كدر شربي ونغص عيشي من وفاة أم الولد عن أصاغر زُغب الحواصل بين ذكران وإناث في

[1] المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج1، ص321-323 .

بلد الغربة وتحت سرادق الوحشة، ودون أذيال النكبة، فَجَلت عليها حسرتي واشتد جزعي، وأشفيت لعظم حزني، إذ كانت واحدة نساء زمانها جزالة وصبرا ومكارم أخلاق، حازت بذلك مزية الشهرة حيث حلت من القطرين، فدفنتها بالبستان المتصل بالدار بمدينة سلا، ووقفت على قبرها الحبس المغل لمتولي القراءة دائما عليها، وصدر عنى مما كتب على ضريحها وقد أغرى به التنويه والاحتفال:

رَوَّعَ بَالِي وَهَاجَ بَلْبَالِـــــــي وَسَامَنِي الثَّكْلَ بَعْدَ إِقْبَالِ

ذَخِيرَتِي حِينَ خَانَنِي زَمَنِـــــي وَعُدَّتِي فِي اشْتِدَادِ أَهْوَالِ

حَفَرَتُ فِي دَارِيَ الضَّرِيحَ لَـــهَا تَعَلُّلاً بِالْمُحَالِ فِي الْحَالِ

وَغِبْطَةً تُوهِمُ الْمُقَامَ مَعِـــــي وَكَيْفَ لِي بَعْدَهَا بِإِمْهَالِ

سَقَى الْحَيَا قَبْرَك الْغَرِيـــبَ وَلاَ زَالَ مُنَاخَاً لِكلِّ هَطَّـالِ

قَدْ كُنْتِ مَالِي لَمَّا اقْتَضَى زَمَنِي ذَهَابَ مَالِي وَكُنْتِ آمَالِي[1]

ومن طرائف ما يذكر لابن الخطيب ما أورده : ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرا إلى السلطان أبي عنان، مستمدين له على عدوهم الطاغية، على عادتهم مع سلفه، فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه، تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها، واستأذنه في إنشاد شعر قدمه بين يدى نجواه، فأذن له، وأنشد وهو قائم :

خَلِيفَةَ اللهِ ساعَدَ القـــــدَرُ عُلاكَ ما لاحَ في الدُّجى قَمَرُ

ودافَعَتْ عنْكَ كفُّ قُدْرَتِـــــهِ ما ليْسَ يسْتَطيعُ دَفْعهُ البـَشَرُ

[1] ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، نشر أحمد مختار العبادي، مر: عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص205 .

لَيْسَ لَنا ملْجأٌ نؤمِّلُـــــــــهُ سِواكَ أنتَ الثِّمال والـــوَزَرُ

وجْهُكَ في النّائِباتِ بدْرُ دُجىً لَنا وفي المحْلِ كفُّكَ المطَـرُ

والنّاسُ طُرّاً بأرْضِ أندَلـــسٍ لوْلاكَ ما أوطَنوا ولا عمَـروا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات، وأذن له في الجلوس، وقال له قبل أن يجلس: ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم، ثم أثقل كاهلهم بالإحسان، وردّهم بجميع ما طلبوه. و قال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف، وكان معه في ذلك الوفد: لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا.[1]

وإضافة إلى ما ذكرناه من ذكاء وسرعة البديهة والجواب، فنضيف اهتمامه بالمستجدات في عصره وإلمامه بها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اتجاه معين في فكر لسان الدين، فليس من العبث أن يستوقفه في مدينة فاس دولاب الماء أو النورية كما يسمونها في الشرق، لقد أعطاها ما تستحقه من الوصف وطوع الشعر لأداء ما يتصل بالآلة، وهذا شيء جميل:

وَقَوْرَاءَ مِنْ قَوْسِ الْغَمَامِ ابْتَغُوا لَـهَا مِثَالاً أَدَارُوهَا بِلاَ شَـــــــــــكِّ

فَبَيْنَ الثُّرَيَّا وَالثَّرَى سُدَّ جرْمُـــــهَا وَلِلْفَلَكِ الدَّوَّارِ قَدْ أَصْبَحَتْ تَحْكِـــي

تَصُوغُ لُجَيْنَ الْمَاءِ فِي النَّهْرِ دَائِما دَرَاهِمَ نَوْرٍ قَدْ خَلصَنْ مِنْ السَّبـــكِ

وَتُرْسِلُ مِنْ شُهْبَانِهَا ذَا ذُؤابَـــةٍ فَتَبْغِي اسْتِرَاقَ السَّمْعِ عَنْ حَوْزَةِ الْمُلْكِ

تَذَكَّرَتِ الْعَهْدَ الَّذِي اخْتُرِعَتْ بِـهِ وَحَنَّتْ فَمَا تَنْفَكُّ سَاجِعَةً تَبْكِـــي

[1] المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق،ج1، ص206 .

إلى جانب هذا رأيناه يؤدي وصفاً دقيقاً لساعة ليست مائية، ولكنها إذا صح التعبير، تعتمد على استهلاك النور!!

ويتعلق الأمر بالساعة التي وصفها في بعض ليالي المولد في غرناطة فلقد اتخذ الغني بالله (مكنان) يخبر بمضي ساعات الليل، عبارة عن صندوق خشبي أجوف في مثل القامة صير منه شكل الإستدارة اثنتي عشر جهة، في أعلى كل جهة منها محراب، واستقلت برأس الصندوق شمعة موقدة، قسم جرمها أجزاء بانقسام ساعات الليل وهناك سبب يفصل بين أجزاء الساعة، يتصل برأس غلق المحراب الظاهر فيمنعه من النزول، وفوق محدب المحراب خرت محكم يفضي إلى شكل يد يعترض مجراه قائم من الحديد مثبت في رأس الغلق الذي يسد المحراب، وخلفه كرة من النحاس، بندقية الشكل، يمنعها ذلك القائم المعترض للمجرى من الإنحدار وخلف الغلق شكل يد يهدي رقعة منظومة تعرف بمضي الجزء من الليل، فإذا استولت النار على الشمعة وبلغت إلى حد الساعة أحرقت السبب المتصل بما ذكر، فانحدر الغلق وزال المانع عن سقوط الكرة فهوت واستقرت في بعض الصحون النحاسية... وبرزت الرقعة فأوصلها القيم على ذلك إلى المسمع فأنشدها، وقد أجري التجريب بهذه الآلة على ما تقتضيه طبيعة نارها وفتيلتها والهواء المحصور في تجويفها فصح عملها واطرد صدفها وخفي قصدها وخف نقلها ... وكلما مرت ساعة سقطت الحصاة في طنجير شهرتها وتفتحت الطاق وتنولت الرقعة إلى انقضاء الليل[1].

[1] التازي، المقال السابق، ص42-43

المبحث الثالث: إنجازاته العلمية

ترك لنا ابن الخطيب، تراثاً حافلا منوعاً، ما بين تاريخ، وأدب، وسياسة و تصوف، وطب، وشعر، ونثر، وقد بلغت مؤلفاته زهاء ستين مؤلفا. وقد انتهى إلينا من هذا التراث أكثره، ولاسيما المجموعة التاريخية والأدبية، التي هي في الواقع لب تراث ابن الخطيب، والتي تلقى أعظم ضوء على تاريخ الأندلس والمغرب، في أواسط القرن الثامن الهجري.

والظاهر أن مؤلفات ابن الخطيب، التي لم تصل إلينا، قد هلك معظمها في محنة إحراق كتبه التي وقعت في غرناطة في سنة 773هـ، وهى من كتب الطب والتصوف والموسيقى، وأن معظم كتبه التي نجت من تلك المحنة، قد وصل إلينا عن طريق المغرب. والواقع أن ابن الخطيب قد وضع كثيراً من كتبه أثناء إقامته منفياً بالمغرب.[1]

01- الإحاطة في أخبار غرناطة: يعتبر كتاب الاحاطة أشهر وأضخم مؤلفاته كما يسمى في مخطوطة دار الكتب المصرية مخطوطة جامع الزيتونة بتونس أو الاحاطة بتاريخ غرناطة نشر جزآن منه في القاهرة سنة 1902م كما طبع بالقاهرة 1375هـ 1955م وحققه محمد عبد الله عنان و طبع في اربعة مجلدات بالقاهرة سنة 1977م[2].

وهو ليس تاريخاً لغرناطة بالمعنى المحدود، ولكنه عبارة عن موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة الأندلسية التالدة، من الأخبار والأوصاف والمعالم، فهو يتناول وصفها وجغرافيتها، وخططها، ومواقعها، وما يحيط بها، من المروج والجبال، ثم يتناول تاريخها مذ نزل بها العرب الأوائل، وأخبار من كان بها، ومن نزلها أو مر بها من الكتاب

[1] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص53

[2] مسعودي مريم وتمرجانت دليلة وبن عيدة خيرة، إسهامات لسان الدين بن الخطيب في التأريخ للحياة الإجتماعية والثقافية في بلاد الأندلس (القرن 8ه/14م)، مذكرة شهادة الماستر، جامعة ابن خلدون، تيارت، 2018/2017، ص25 .

والشعراء والأدباء والوزراء والمتعلمين، كما يتضمن خلاصة لتاريخ الدولة النصرية منذ عصر مؤسسها محمد بن يوسف ابن الأحمر حتى عصر المؤلف.[1]

02-اللمحة البدرية في الدولة النصرية: كتاب تاريخي يتحدث عن سلاطين بني نصر بشكل مختصر وأعمالهم السياسية والإدارية والعسكرية، ابتدأ بتدوينه سنة 763هـ/ 1362م وانتهى منه سنة 765هـ / 1364م[2].

فذكر ملوك دولة بني نصر وأخبارهم وأوطانهم وترتيبهم الزمني، كما ذكر قضاتهم وكتابهم ووزرائهم وينقسم حسبما ذكره :

القسم الأول: في ذكر المدينة التي اقتعد هذا الملك سريرها وأحكم تدبيرها. القسم الثاني: فيما يرجع إليها من الأقاليم والأقطار، على الإيجاز والاختصار. القسم الثالث: فيمن دال بها من أمير، وسلطان شهير. القسم الرابع: في عوائد أهلها وأوصافهم على تباين أصنافهم. القسم الخامس: في نسق الدول، واتصال الأواخر منها بالأول و ما يختص بكل دولة من الألقاب، والأذيال المتطرقة والأعقاب . [3]

03- أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام: فهذا الكتاب هو آخر ما ألفه ابن الخطيب قبل مصرعه هو مؤلف تاريخي ضخم، يمكن أن يوصف بأنه الكتاب الوحيد بين مؤلفات ابن الخطيب الذي يمكن أن تسبغ عليه الصفة التاريخية المحصنة، فهو يشتمل على ثلاثة أقسام كبيرة.حقق القسم الخاص بالمغرب الدكتور أحمد العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، ونشر بعنوان: **(تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط)**. ونشر القسم الثاني (الأندلس) ليفي بروفنسال بعنوان: تاريخ إسبانيا الاسلامية. [4]

---

[1] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص3-4

[2] مسعودي مريم وتمرجانت دليلة وبن عيدة خيرة، مذكرة ماستر، ص26 .

[3] ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، ص344-345

[4] مسعودي مريم وتمرجانت دليلة وبن عيدة خيرة ، مذكرة ماستر، ص26 .

حيث تناول في القسم الأول المشرق والقسم الثاني تناول إسبانيا المسلمة وهو القسم الأكثر أهمية حيث يمر سريعا على الأحداث التي جرت في القرن العاشر المسيحي في حين يعالج بإطناب ودقة الفترة التي تليها، أما الجزء الثالث فيتحدث عن شمال إفريقية وصقلية وبقي غير تام ,فالدولة الموحدية لم تحل فيه بالمكان اللائق بها ولم يتعرض فيه إلى تاريخ بني مرين وبني عبد الوادي وبني حفص. وكل ذلك يدل على عجلة المؤلف الذي يكون قد ألف قسما من كتابه، إن لم يكن جميعه في أربعين يوما.[1]

والسبب الذي دفعه لتأليف هذا الكتاب هو أنه لما توفي السلطان أبو فارس عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن المريني بتلمسان وتغلب على الأمر الوزير أبو بكر بن غازي بن الكاس مُبايعا لابن صغير السن من أولاد السلطان عبد العزيز. ألف كتابه المسمى بـ **(أعمال الأعلام في من بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام)** ومراده بذلك تثبيت دولة الوزير الذي أبى أن يَخْفُرَ عهده وذمته، وامتنع أن يمكن منه أهل الأندلس، فأكثروا القالة في الوزير بسبب مبايعته للصبي، وبنوا ظاهر الأمر على أن ذلك لا يجوز بالشرع، وأبدأوا وأعادوا في ذلك، وأسروا ما كان من أمرهم حَسْوا ارتغاء. [2]

ومن أهم مصادرنا المتأخرة لتاريخ فترة ملوك الطوائف – وبخاصة دولة بني زيري في غرناطة – كتاب أعمال الأعلام والإحاطة في تاريخ غرناطة. ومما يزيد من أهمية الكتابين أنهما يشتملان على مقتبسات ومقتطفات من كتب ابن حيان، وابن الصيرفي، والغافقي، وابن القطان – والتي لم تصلنا – أوردها ابن الخطيب ذاكراً أسماء أصحابها في كل موضع يقتبس فيه، ومضيفاً ملاحظاته وتعقيباته بأسلوب مرسل بليغ غير مثقل – في الغالب بالأمجاع والمحسنات اللفظية. ويمكن اعتبار كتاب أعمال الأعلام – بحق – خير

[1] ابن الخطيب، أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تح: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط2، بيروت، لبنان، 1956، ص7 .

[2] المقري، نفح الطيب، ج5، ص180

مدخل لتاريخ الأندلس – وبقلم مؤرخ أندلسي – من الفتح الإسلامي إلى عهد ابن الخطيب.[1]

04- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب: يعد كتاب نفاضة الجراب من أهم كتب لسان الدين بن الخطيب، وهو كتاب تاريخي أدبي وصف فيه لسان الدين بن الخطيب كثير من مسالك البلاد التي زارها في بلاد المغرب منها مدينة مكناسة وسلا والرباط وآسفي ومراكش واغمات ويتضمن الكتاب تهنئة السلطان ابي سالم بمناسبة فتح تلمسان. وتضمن عدة رسائل وجهها الى أصدقائه منها رسالة الى ابن خلدون، وأخرى إلى القاضي إبن بطوطة ويورد فصلاً عن سقوط السلطان أبو سالم زيادة على ذلك فهو سجل لمذكرات لسان الدين بن الخطيب الشخصية عن فترة من أهم فترات حياته التي قضاها في عزلته في مدينة سلا المغربية مع سلطانه الغني بالله وهي مدة تقرب من سنتين (760٠763 هـ/ 1359٠1362 م) كما يشير لسان الدين بن الخطيب. وقد ألف الكتاب بين سنة (761-763 هـ) أما في كتابه اللمحة البدرية فيشير أنه بدأ تدوين هذا الكتاب في منفاه بالمغرب وانتهى منه اوائل سنة (765 هـ / 1363 م). [2]

05- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: وهو من فريد مؤلفاته، ويقع في ثمانية أسفار، وهو عبارة عن نماذج من الترسيل المرصع المسجوع، وهذه الرسائل تبدأ من سنه (750هـ / 1349 م)، وبعضها متأخر حوالي سنة (771هـ/ 1369م)، مما يدل على أن مواده ورسائله قد جمعت خلال إقامته في غرناطة أي أثناء وزارته الثانية للسلطان الغني بالله (764هـ- 1362م-/772هـ-1370م) ويتضمن هذا الكتاب عددا كبيرا من الوثائق التاريخية المهمة، منها ما يشمل الفتوحات، ومنها رسائل السلطان الغني بالله إلى الشعب

[1] الطيبي أمين توفيق، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، تونس، 1997، ج2، ص211-212 .

[2] ساجد مخلف حسن، لسان الدين بن الخطيب حياته ومنهجه في كتابة نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، قسم التاريخ، كلية التربية، جامعة سامراء، العراق، 2013 ,ص250 .

الغرناطي في الحث على الجهاد، ومنها في باب كتب الاستظهار على العداد والاستنجاد، كما يشمل وثائق تاريخية ورسائل من غزوة قرطبة، كما جمع فيه وثائق دستورية وإدارية تتعلق بالتعيينات في المناصب المختلفة كتعيين قاضي الجماعة أو تعيين منصب خطابة الجامع، والمراسيم السلطانية، كذلك كتب التهاني.

وعن سبب هذه التسمية يقول ابن الخطيب: وسميته لتنويع بساتينه المشوقة وتعدد أفانيه المعشوقة **(ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)** وقسمته إلى حمدلة ديوان، وتهيئة بإخوان، وتعزية في حرب للدهر عوان، وأعراض ألوان، وفتوح يجليها السلوان، ومخاطبات إخوان، وغير ذلك من أغراض ألوان صنوان وغير صنوان.[1]

06- كناسة الدكان بعد انتقال السكان: لقد تضمن الكتاب تراثا سبق أن كتبه ابن الخطيب، وسماء بهذا الاسم مشيرا إلى الظروف السياسية السابقة واللاحقة.

والكتاب يضم مقدمة، ثم أقساما ثلاثة:

القسم الأول: وثيقة زواج نصرى جرت رسومه في قصر الحمراء بغرناطة بين أخت السلطان أبى الحجاج يوسف الأول وبين القائد الرئيس أبي الحسن بن أبي جعفر، والوثيقة – بعد إطنابها في تمجيد أعمال بعض الملوك الأوائل من بنى الأحمر – تضمنت تحقيقا لنسب الأسرة انتهى بهم إلى سعد بن عبادة الأنصاري.

والقسم الثاني والثالث: مجموعة من الرسائل تبلغ خمسا وعشرين رسالة كتبها ابن الخطيب على لسان السلطان يوسف الأول إلى السلطان أبي عنان فارس المريني ملك المغرب (749 – 759 هـ / 1349 – 1360 م). وهذه الرسائل توضح العلاقات الدبلوماسية التي كانت قائمة وقتذاك بين مملكتي غرناطة وفاس. وهي – بحق – وثائق هامة للباحثين في أحداث المغرب و الأندلس. فالكتاب – إذن – مجموعة من الوثائق

[1] حدود داوود الحسين، لسان الدين بن الخطيب، رسالة ماجستير، جامعة بنغازي، ليبيا، ص119 .

الفريدة في تاريخ العلاقات بين العرب والأندلس، فهو إلى الوثائق أقرب منه إلى التاريخ ... وهو لذلك نص بالغ القيمة، يضيف إلى المكتبة الأندلسية إضافات نافعة، ويلقي الضوء على فترة هامة من تاريخ تلك البلاد.[1]

07- رقم الحلل في نظم الدول: وهو عبارة عن تاريخ منظوم للدول الإسلامية، الخلفاء الأوائل وبني العباس، وبني الأغلب، والعبيديين، وبني أمية بالأندلس، والطوائف، والمرابطين والموحدين، وبني مرين وبني نصر، وشرح هذه القصائد نثراً بقلم ابن الخطيب نفسه. وقد نشر جزء من هذا الكتاب بتونس في سنة 1316 هـ (1898 م) وهو يسمى أحياناً بـ**(الحلل المرقومة)** .[2]

08- طرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر: وهو تاريخ آخر للدولة النصرية، وقد أشار إليه ابن الخطيب غير مرة في كتاب اللمحة البدرية وكذلك أشار إليه مراراً في كتاب الإحاطة. ولم تعثر على أية نسخة مخطوطة من هذا الكتاب، في مختلف المكتبات التي تحتوى على آثار ابن الخطيب.

09- الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم التاج من الجواهر: وفيه يتناول ابن الخطيب تراجم بعض أعلام معاصريه بأسلوب مسجع. وهو بمثابة تكملة لكتاب التاج المحلى. وقد ورد بعد تراجم التاج المحلى في المخطوط رقم 554 الغزيرى مكتبة الإسكوريال، وقد نقل إلينا المقري منه كثيراً من التراجم والنبذ .[3]

11- الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة أو الكتيبة الكامنة في أهل المائة الثامنة: ترجم ابن الخطيب في كتاب الكتيبة الكامنة لثلاثة أشخاص ومائة جعلهم في قسمين كبيرين:

---

[1] ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان حول العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب في القرن الثامن هجري، تح: محمد كمال شبانة وحسن محمود، دار الكتاب العربي، مصر، 1966، ص6 .

[2] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة،المصدر السابق، ج1، ص55

[3] نفسه، ص58 .

الذين قضوا نحبهم قبل تأليف الكتاب (من رقم 1– 84) والذين كانوا ما يزالون على قيد الحياة عند تأليفه (من رقم 85–103). وفي هذه القسمة شيء من التجوز فان بعض الذين ترجم لهم في القسم الأول عاشوا بعد وفاة الخطيب نفسه مثل القاضي النباهي. ثم قسم المترجمين حسب ما غلب على كل واحد منهم فجاءوا في الطبقات الآتية:

1– طبقة الخطباء والصوفية (1 – 19) وحظهم في الاجادة قليل.

2– طبقة المقرئين والمدرسين (20–30)وهم أقل شأناً من الطبقة السابقة في باب الشعر.

3– طبقة القضاة (31 – 54) وهي طبقة منحطة في البيان لاقتصار مداركها على علوم الأديان ويندر فيها المجيد.

4– طبقة من خدم أبواب الأمراء من الكتاب والشعراء (55– 103) وربما كانوا متميزين بالإجادة أكثر من أفراد الطبقات السابقة.[1]

14– روضة التعريف بالحب الشريف: ألف ابن الخطيب كتابه هذا معارضا به ديوان الصبابة لابن أبي حجلة التلمساني، ويقول عنه في رسالة بعثها لابن خلدون: "إن كتاباً وقع للسلطان من تصنيف أبي حجلة من المشارقة، فأشار الأصحاب بمعارضته، فعارضته وجعلت الموضوع أشرف، وهو محبة الله تعالى"، ويقول لسان الدين في مقدمة كتابه: "إن السلطان هو الذى أمره بمعارضة الكتاب، ولا غرابة في اختلاف كلامه الموجه لابن خلدون وكلامه المذكور في المقدمة، فقد يكون السلطان أمره بالمعارضة بناء على رغبة الأصحاب.

حيث تناول فيه الحب الإلاهي وأسباب المحبة والسلوك إلى الحب بالذكر، ثم بعد ذلك يتحدث عن العارف وأوصافه وعلومه، ثم عن البدايات، والأبواب والمعاملات،

[1] ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص 17-18-19 .

والأخلاق، والأصول، والأودية، والأحوال، والولايات، والحقائق، والنهايات. ثم يتحدث عن أنواع المحبوبات. ثم عن المحبين من الفلاسفة الأقدمين، ثم يتحدث عن علامات الحب إلى أن يصل إلى تغريد الطائر الصادح في أعلا الشجرة ،أي شجرة الحب الشريف.[1]

15- **عمل من طب لمن حب** : ومنزلته في الصناعة الطبية بمنزلة كتاب أبي عمرو ابن الحاجب المختصر في الطريقة الفقهية، لا نظير له.[2]

استنزاف اللطف الموجود في سير الوجود– رسالة في السياسة – المفاخرة بين مدينة مالقة وسلا – معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار – بستان الدول – عائد الصلة – خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف – مثلى الطريقة في ذم الوثيقة – رسالة في الموسيقى – تافه من جم نقطة من يم(مجموعة رسائل لابن الجياب ولم تصلنا) – الصيب الجهام الماضي الكهام – الحلل المرقومة واللمع المنظومة(أرجوزة من ألف بيت في أصل الفقه) – السحر الشعر– جيش التوشيح – الدرر الفاخرة اللجج الزاخرة (مجموعة من شعر ابن الجياب أبي جعفر بن صفوان المالقي ولم تصلنا)– كناش منم في عروض الرجز (مؤلف شعري في العروض) – تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة – أرجوزة في الطب – أرجوزة في الأغذية – الوصول لحفظ الصحة في الفصول – الأرجوزة المعلومة (كتاب لعلاج السموم) – مقنعة السائل عن المرض الهائل – اليوسفي في الطب –رسالة في تكوين الجنين – كتاب البيطرة وغيرها.....[3]

هذه مؤلفات ابن الخطيب المشهورة، فبعضها تم نشره، والبعض الآخر لازال في رفوف المكتبات على شكل مخطوطات ينتظر أصحاب الهمم العالية لتزيل عنه الغبار، ومنها ما أحرق في المحنة التي أودت بحياته .

[1] ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، ص28-29-30 .
[2] المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج7، ص97-98 .
[3] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص23إلى28 .

الفصل الثاني: ابن الخطيب العالم والسياسي

المبحث الأول: شيوخه وتلامذته

أ- شيوخه:

لقد تتلمذ لسان الدين على مجموعة من المشايخ والعلماء وأخذ عنهم مختلف العلوم، وسنأتي على ذكر بعضهم:

ونبدأ بأول من تعلم على يدهم وهو **أبو عبد الله بن عبد الولي العواد**، إذ يقول لسان الدين "قرأت كتاب الله عز وجل على المكتب نسيج وحده في تحمل المنزل حق حمله تقوى وصلاحا وخصوصية واتقانا ونعمة وعناية وحفظا وتبحرا في هذا الفن، واطلاعا على رغائبه، واستيعابا لسقطات الأعلام الأستاذ الصالح أبي عبد الله بن عبد الولي العواد تكتبا ثم حفظا ثم تجويدا، إلى مقروءات أبي عمرو رحمة الله عليهما".[1]

ثم تعلم على يد **أبي الحسن القيجاطي** وهو أبو الحسن علي بن عمر بن إبراهيم الكنائي القيجاطي، أوحد زمانه علما وتخلقا وتواضعا وتفننا، وجاء إلى غرناطة سنة 712هـ، درس عليه بن الخطيب القرآن والعربية وكان أول من انتفع به .[2]

وقرأ على **أبي القاسم بن جزي** رحمه الله وقال عنه في الكتيبة الكامنة "شمس في سماء البلاغة بازغة، وحجة على بقاء هذه الفطرة العربية بالمغربية بالغة، ونعمة على هذه الطريقة سابغة، ونادرة فيها ونابغة، من جذع أبر على القارح، وزجر من المعرفة كل سانح، لا بارح، لو تعلقت الغوامض بالثريا لنالها، وقال أنا لها، وربما غلبت الغفلة على ظاهره، وانطبق كمامه على أزاهره، فاذا قدح زنده، تقدم المواكب بنده".[3]

كما قرأ على الشيخ **أبي عبد الله بن الفخار** اللغة العربية والفقه والتفسير وقال عنه " رجل سليم الباطن، متفق على فضله وورعه من الراحل والقاطن، نافع التعليم، متلقاة

---

[1] التطواني، المرجع السابق، ج1، ص48

[2] عبد الحميد طواهري و عبد اللطيف قحفص، اغتيال لسان الدين بن الخطيب في رمزية العلاقة بين السياسي العالم السلطة، مذكرة ماستر، 2020/2019، ص29

[3] ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة، المصدر السابق، ص223

دعوى معرفته بالتسليم، خرج من بلدة أركش" لما استباح العدر حماه، وغير اسماه ومسماه، فانتصب يقرئ، الفنون، حتى لقي المنون وأوجب الله به النفع فوجب، وقل أن يقرأ عليه أحد إلا نجب".[1]

ولا ننسى ذكر قاضي الجماعة **أبوعبد الله بن بكر** الذي ذكره صاحب نيل الإبتهاج نقلا عن الإحاطة بقوله " كان من صدور العلماء وأعلام الفضلاء سذاجة ونزاهة ومعرفة وتفننا، فسيح الدرس أصيل النظر واضح المذهب، مؤثراً للإنصاف، عارفاً بالأحكام والقراءة، مبرزاً في الحديث تاريخاً وإسناداً، وتعديلاً وجرحاً، حافظاً للأنساب والأسماء والكنى قائماً على العربية، مشاركاً في الأصول والفروع، واللغة والعروض والفرائض والحساب، مخفوض الجناح، حسن الخلق عطوفاً على الطلبة، مُحباً في العلم والعلماء، مطرح التصنع عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر، عزيز النفس نافذ الحكم، تقدم للشياخة بمالقة، ناظراً في أمور العقد والحل ومصالح الكافة .....تصدر لبث العلم بالحضرة يقري فنوناً جمة، فنفع وخرج، وأقرأ القرآن ودرس الفقه والأصول والعربية والفرائض والحساب وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً على انشراح صدر وحسن تجمل، وخفض جناح ".[2]

ولا يمكننا الحديث عن شيوخ لسان الدين دون ذكر الشيخ الرئيس صاحب القلم الأعلى الصالح الفاضل **أبي الحسن بن الجياب** والذي تأدب به لسان الدين أخذ عنه الكثير وقال عنه "صدر الصدور الجلة، وعلم من أعلام الملة، شيخ الكتابة وبنيها، ومتولي أيام خدمتها وسنيها، وهاصر أفنان البدائع وجانيها، اعتمدته الرئاسة فناء بها على حبل ذراعه، واستعانت به السياسة فدارت أفلاكها على شباة يراعه، وتعاقبت دول العدل فلم تر له عديلا، ولا وجدت لسنة اصطباغه تبديلا، ولا ثكلت سواجع البيان، من يراعه

[1] ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة، المصدر السابق، ص 80

[2] أحمد بابا التنبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، دار الكاتب، ط2، طرابلس، ليبيا، 2000، ص396

الرائع الإفتنان، هديلا، أي ندب على علو القدر متواضع، وحبر لثدي المعارف راضع، لا يمر الكلام في فن إلا كان له في ميدانه التبريز، ولا تعرض جواهر الأفهام على ميدان الإتهام إلا انتسب إليه الإبريز، إلى نفس هذيت الآداب شمائلها، وجادت الرياضة رياضها العاطرة وخمائلها، ومراقبة لربه، وانتشاق لروح الله من مهبه، وأنس بالأسحار يقريها من الأوراد خير قرى، ثم يبكي معتذراً عن جهده ومحتقرا؛ وكل ما ظهر علينا – معشر بنيه– من شارة تحلى بها العين، أو إشارة كما سكب اللجين، فهي إليه منسوبة، وفي حسناته محسوبة، كالشمس تلقي على النجوم شعاعها، والصور الجميلة تترك في الأجسام الصقيلة انطباعها ؛ وما عسى أن يقال في أمام الأئمة، ونور الدياجي المدلهمة، والمثل السائر في بعد الصيت وعلو الهمة، والحق أن نعدل عن سلطانياته لاشتهارها، ونجلب شيئاً من إخوانياته لا يناع أزهارها".[1]

أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسني السبتي: الفقيه الجليل الشريف النبيل الشهير، رئيس العلوم اللسانية بالأندلس، قاضي الجماعة، كان هذا الشريف آية الله الباهرة في العربية والبيان والأدب، ويكفيه فضلا أنه شرح الخزراجية .

ابن بيبش: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بيش العبدري، كان له نظم جيد، قال فيه ابن الخطيب " شيخ قديم الطلب، حمد المأم والمنقلب، معروف انقباضه وصوته، منذ تعين كونه عانى صناعة النحو، بين الإثبات والمحو، واشتهر بالإلحاح على كتب الصحاح واقتصر على تجارة في الكتب " كان له في العربية باع مديد وفي هدفها سهم سديد".[2]

القاضي أبو البركات المعروف بابن الحاج البلفيقي: وهو محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد ابن خلف السلمى، من ذرية العباس بن مرداس المعروف في بلده بابن

[1] ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة، المصدر السابق، ص183

[2] عبد الحميد طواهري و عبد اللطيف قحفص، مذكرة ماستر، ص 22

الحاج، وتولى القضاء في بلاد عديدة، منها مالقة، ثم نقل إلى قضاء الجماعة بحضرة غرناطة والخطابة بها. وكان مستوفياً لشروط الخطبة وجوباً وكمالاً من صورة وهيئة، وطيب نعمة، وكثرة خشوع، وتوسط إنشاء. وشهر بالصرامة في أحكامه، والنزاهة أيام نظره، واستقر بمدينة ألمرية قاضيا وخطيبا إلى أن توفي في رمضان سنة 773 هـ.[1]

المقري الجد: وهو جد أحمد بن محمد المقري صاحب نفح الطيب وهو محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المقري، يكنى أبا عبد الله، قاضي الجماعة بفاس، وقال الونشريسي في حقه ما نصه: "القاضي الشهير الإمام العالم أبو عبد الله محمد بن محمد المقري، التلمساني المولد والمنشأ، الفاسي المسكن، كان رحمه الله تعالى عالماً عاملاً ظريفاً نبيها ذكياً نبيلاً فهماً متيقظاً جزلاً محصلاً". وقال عنه لسان الدين " هذا الرجل مشار إليه بالعدوة الغربية اجتهاداً ودؤوباً وحفظاً وعناية واطلاعاً ونقلا ونزاهة، سليم الصدر، قريب الغور، صادق القول، مسلوب التصنع، كثير الهشة، مفرط الخفة، ظاهر السذاجة، ذاهب أقصى مذاهب التخلق، محافظ على العمل، مثابر على الانقطاع، حريص على العبادة، مضايق في العقد والتوجه " .[2]

كما أخذ الطب والتعاليم والمنطق وصناعة التعديل عن الامام **أبى زكرياء بن هذيل**، وقد قال في الإحاطة في حقه ما ملخصه: "يحيى ابن أحمد بن هذيل التجيبي، أبو زكريا، شيخنا، جرى ذكره في **(التاج المحلى)** بما نصه : "درة بين الناس مغفلة، وخزانة على كل فائدة مقفلة، وهدية من الدهر الضنين لبنيه محتفلة، أبدع من رتب التعاليم وعلمها، وركض في الألواح قلمها، وأتقن من صور الهيئة ومثلها، وأسس قواعد البراهين وأثلها، وأعرف من زاول شكاية، ودفع عن جسم نكاية، إلى غير ذلك من المشاركة في

[1] أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، تح: لجنة التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، ط5، بيروت، لبنان، 1983، ص164

[2] ابن الخطيب، نفح الطيب، المصدر السابق، ج5، ص203

العلوم، والوصول من المجهول إلى المعلوم، والمحاضرة المستفزة للحلوم، والدعابة التي ما خالع العذار فيها بالملوم، فما شئت من نفس عذبة الشيم، وأخلاق كالزهر من بعد الديم، ومحاضرة تتحف المجالس والمحاضر، ومذاكرة يروق النواظر زهرها الناضر، وله أدب ذهب في الإجادة كل مذهب، وارتدى من البلاغة بكل رداء مذهب، والأدب نقطة من حوضه، وزهرة من زهرات روضه". ولما مرض استدعى لسان الدين وأوصاه بأن يدفنه قرب زوجته وأنشد ذلك في أبيات شعرية نذكرها :

إذا متُّ فادفنِي حذاءَ حليلتـــــي يخالطُ عظمي في الترابِ عظامها

ولا تدفنِّي في البقيع فإنَّنـــــي أريدُ إلى يومِ الحسابِ التزامـــها

ورتِّب ضريحي كيفمَا شاءه الهَوى تكون أمَامي أو أكونُ أمامـــها

لعلَّ إلهَ العرش يجبرُ صدعتـــي فيُعلِي مقامي عنده ومقامـــَها

ومات رحمه الله تعالى في الخامس والعشرين لذي القعدة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ودفن بحذاء زوجه كما عهد رحمه الله تعالى.[1]

إضافة إلى هؤلاء روى لسان الدين عن الكثير ممن جمعه الزمان وإياهم بهذا القطر من أهل الرواية، كالمحدث أبي عبد الله بن جابر وأخيه أبي جعفر، والشيخ المحدث الصالح أبى محمد بن سلمون وأخيه القاضي أبي القاسم سلمون وأبى عمرو بن الأستاذ أبى جعفر بن الزبير، وله رواية عالية والمحدث الكاتب أبي الحسن التلمساني المسن والحاج أبى القاسم بن المهني المالقي والعدل أبي محمد السعدى تحمل عن الإمام ابن دقيق العيد، والقائد الكاتب ابن ذي الوزارتين أبى بكر ابن الحكيم والقاضي المحدث الأديب جملة الظرف أبى بكر بن شبرين والشيخ أبي عبد الله بن عبد الملك، والخطيب أبى جعفر الطنجالي والقاضي أبى بكر بن منظور والراوية أبي عبد الله ابن حزب الله كلهم من مالقة والقاضي أبي عبد الله المقري التلمساني والشريف أبى علي حسن بن

[1] ابن الخطيب، نفح الطيب، المصدر السابق، ج5، ص488

يوسف، والخطيب الرئيس أبي عبد الله بن مرزوق كلهم من تلمسان والمحدث الفاضل الحسيب أبي العباس بن يربوع، والرئيس أبي محمد الحضرمي السبتيين والشيخ المقري أبي محمد بن أيوب المالقي آخر الرواة عن ابن أبي الأحوص وأبى عثمان بن ليون من أهل المرية والقاضي أبي الحجاج المنتشافري من أهل رندة وطائفة كبيرة من المعاصرين تحملا و تدبجا ومن أهل العدوة الغربية والمشرق وإفريقية الكثير بالإجازة.[1]

ب- تلامذته :

- فمن أشهرهم الوزير الكاتب أبو عبد الله **ابن زمرك** وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي يكنى أبا عبد الله، ويُعرف بابن زمرك . أصله من شرقي الأندلس، وسكن سلفه ربض البيازين من غرناطة، وبه ولد ونشأ، وهو من مفاخره. وقال عنه المقري نقلا عن الإحاطة : "هذا الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبائها، مختصر مقبول هش خلوب، عذب الفكاهة حلو المجالسة، حسن التوقيع خفيف الروح عظيم الانطباع شره المذاكرة، فطن بالمعاريض حاضر الجواب، شعلة من شعل الذكاء تكاد تحتدم جوانبه، كثير الرقة فكه غزل مع حياء وحشمة، جواد بما في يده مشارك لإخوانه، نشا عفا طاهراً، كلفا بالقراءة عظيم الدؤوب، ثاقب الذهن، أصيل الحفظ ظاهر النبل، بعيد مدى الإدراك جيد الفهم، فاشتهر فضله وذاع أرجه وفشا خبره، واضطلع بكثير من الأغراض وشارك في كثير من الفنون، وأصبح متلقف كرة البحث وصارح الحلقة،ومظنة الكمال، ثم ترقى في درج المعرفة والاضطلاع وعاضلجة الحفظ، وركض قلم التقييد والتسويد والتعليق، ونصب نفسه الناس متكلماً فرق الكرسي المنصوب، وفوق المحفل المجموع، مستظهراً بالفنون إلي بعد فيها شأوه من العربية والبيان وما يقذف به في لج النقل من الأخبار والتفسير، متشوفاً مع ذلك إلى السلوك مصاحباً للصوفية اخذا نفسه بارتياض ومجاهدة، ثم عانى الأدب فكان أملك به، وأعمل الرحلة في طلب العلم

[1] التطواني، المرجع السابق، ج1، ص49

والازدياد، فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب، ثم عن السلطان، وعرف في بابه بالإجادة". [1] وقد كان ابن زمرك من أحب تلاميذ ابن الخطيب إليه، هذا قبل تغيره على شيخه و قبل أن تعمي السياسة وحب المناصب قلبه، فأصبح يكيد له إلى أن تسبب في قتله .

– ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى، الطبيب العالم **ابن المهنا** شارح ألفية ابن سينا، وشرحه عليها من أبدع الشروح، وقد نقل عن لسان الدين كثيراً، واعتمد عليه في أمور الطب.

– ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : الأديب الكاتب العالم العلامة القاضي **أبو بكر ابن جزي الكلبي**، وأبوه الشيخ أبو القاسم ابن جزي شيخ لسان الدين، وبيت بني جزي بيت كبير مشهور بالمغرب والأندلس، وقد عرفنا فيما سبق بالشيخ أبي القاسم وابنيه العلامتين الناظمين الناثرين الكاتب أبي عبد الله محمد والقاضي أبي بكر المذكور. ورأيت بخط بعض علماء المغرب أن أبا بكر المذكور روى عن لسان الدين ابن الخطيب جميع تواليفه مع أنه مقاربه في السن .

– ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : مؤدب أولاد الملوك ومعلمهم القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم **أبو عبد الله الشريشي**، وهو الذي تولى أولاً نقل (الإحاطة) من مبيضتها، وأحكم النسخة، فكانت في مجلدات ستة، وكان لسان الدين ألقى إليه بالمبيضات اعتماداً منه عليه، وثقة به، لاشتغال لسان الدين بأمور المملكة .

– ومن تلامذة لسان الدين : القاضي الكاتب **أبو محمد عطية بن يحيى** بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي.

[1] ابن الخطيب، نفح الطيب، المصدر السابق، ج7، ص145

قال في (الإحاطة) : " صاحبنا الفقيه الخطيب، كاتب الإنشاء بالباب السلطاني أبو محمد، نسيج وحده في أصالة البيت وعفاف النشأة، مقصود المنزل، نبيه الصهر، معِم مخوَلٌ في الأصالة، بارع الخط، جيد القريحة، سيال المداد، نشيط البنان، جلد على العمل، خطيب ناظم ناثر، قرأ بغرناطة، وولي الخطابة بالمسجد الأعظم والقضاء سنتين ببلده في حداثة السن، ثم انتقل إلى غرناطة فجأجأت به الكتابة السلطانية داحضة بالحق، آوته إلى هضبة أمانة مستظهرة ببطل كفاية، فاستقل رئيساً في غرض إعانتي وانتشالي من هفوة الكلفة على جلل الضعف وإلمام المرض[1].

– ومن تلامذته أيضا **أحمد بن سليمان بن أحمد** بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن فركون، شعلة من شعل الذكاء والإدراك، ومجموع خلال حميدة، على الحداثة، طالب نبيل، مدرك، نجيب، بذ أقرانه كفاية، وسما إلى المراتب، فقرأ، وأعرب، وتدرب، واستجاز له والده شيوخ بلده، فمن دونهم، ونظم الشعر، وقيد كثيراً، وسبق أهل زمانه في حسن الخط، سبقا أفرده بالغاية القصوى، فيراعه اليوم، المشار إليه، بالظرف والإتقان، والحوا، والإسراح، اقتضى ذلك كله ارتقاؤه إلى الكتابة السلطانية، ومزية الشفوف بها، بالخلع والاستعمال، واختص بي، وتأدب بما انفرد به من أشياخ تواليفي، فآثرته بفوائد جمة، وبطن حوضه من تحلبه، وترشح إلى الاستيلاء على الغاية .[2]

[1] ابن الخطيب، نفح الطيب، المصدر السابق، ج7، ص281–283

[2] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج2، ص220

المبحث الثاني: حنكة ابن الخطيب في عالم السياسة

وكما هو معروف أن المجتمع الأندلسي كان ذو سطوة يقوِّم السلاطين والحكام لهذا كان لزاما على المسؤول أن يكون مستوفي لأغلب الخصال والعلوم كي لا يترك للرعية بابا للولوج منه والطعن في أحقيته بهذا المنصب وهذه المكانة.

وقد كثر الوزراء و الأدباء في العصور الأولى للإسلام، بل كان النبوغ في الأدب هو المؤهل الأول للوزارة، ولكن الوزير الأديب العالم الفقيه الأصولي الطبيب الصوفي هو النموذج الذى يقل بين وزراء التاريخ الإسلامي. وقد كانت حاجة الأندلس إلى هذا اللون الموسوعي من الوزراء ماسة بمقدار ما في التيارات المهاجمة من قوة، فقد انقسمت الأندلس إلى دويلات، واشتد الهجوم عليها حربيا وفكريا من أجناس ليست عربية ولا إسلامية. وكانت الأسلحة الفكرية تختلف باختلاف الميدان الذي تلعب فيه دورها، فهي بين العامة تشكيك وهدم و بين العلماء اتهام بالزندقة والإلحاد، وكان كثير من العلماء يؤثرون الكسب الرخيص على الصالح العام، ولذلك كان العلم والأدب والسياسة ضريبة لازمة على من يتولى الوزارة في تلك الأيام، لا سيما وأنه لم يخل الجو الإسلامي الخالص من نزعات المزاحمة وما تتطلبه من تجريح ودس ونفاق، شأن الدول المضطربة التي تقترب من النهاية[1].

وكان من الطبيعي أن يصل ابن الخطيب إلى مرتبة الوزارة، فضلا وعلما وأدبا، ثم ثقة قبل كل هذا، وكان لمهارته وذكائه وقع عظيم في نفس أبي الحجاج، حتى فوضه معظم شؤون الدولة، من اختيار العمال والقضاة، إلى إصدار المراسيم ومكاتبة الولاة، بل أنابه عنه في ادارة دفة الحكم، عندما قاد السلطان الجيش الأندلسي بنفسه في معركة طريف الشهيرة 07 جمادى الأولى 741 هـ – 30 اكتوبر 1340 م، ورمى إليه بخاتمه وسيفه حتى يعود من الجهاد، بالرغم من أن أستاذ ابن الخطيب أبا الحسن بن الجياب

[1] ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، المصدر السابق، ص 21

كان على رأس ديوان الانشاء يومئذ، مما يعطينا صورة جلية عن ثقة السلطان البالغة بصاحبنا، بعد أن رأى فيه عزم الشباب وحصافة الشيوخ[1].

وبعد وفاة أبي الحسن بن الجياب، انفرد ابن الخطيب برياسة الكتابة وثناه السلطان بالوزارة، وجعله لسانه في مكاتبة جيرانهم، وكاتب سره، فصدرت بقلم ابن الخطيب جملة من الرسائل الرائعة العجيبة،[2]، والتي كانت محل إعجاب المؤرخ المعاصر ابن خلدون وتقديره، فسماها بـ "الغرائب"،[3] وقربه السلطان، وبلغ به من المخالطة إلى حيث لم يبلغ بأحد من قبله.[4]

واختياره لكتابة الرسائل دليل على مكانته العلمية والأدبية، إذ يقول القلقشندي في هذا الصدد :" ليس في منزلة خدم السلطان والمتصرفين في مهماته أخص من كاتب الرسائل. فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه، والإفضاء إليه بمهماته، وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته، واطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته؛ فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به".[5]

أما في السفارة فبرز ابن الخطيب كسفير كيِّس فطن ومفوّه، ويُجمل الحديث عن السفارات التي قام بها بقوله في الإحاطة "واستعملني السلطان في السفارة إلى الملوك" . ويمكننا أن نذكر ثلاث سفارات قام بها : الأولى كانت عام 752هـ-1351م عندما ورد سفيرا عن السلطان أبي الحجاج يوسف بن اسماعيل بن فرج إلى السلطان أبي عنان بمدينة فاس.[6]

---

[1] ابن الخطيب، كناسة الدكان، المصدر السابق، ص09

[2] ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تص: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1347هـ، ص5

[3] ابن الخطيب، كناسة الدكان، المصدر السابق، ص10

[4] ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، المصدر السابق، ص 5

[5] أبي العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922، ج1، ص101

[6] عبد الهادي التازي، ابن الخطيب سفيرا، المقال السابق، ص47

لقد كانت السفارة تهدف أولا إلى مواساة السلطان المغربي السلطان أبي عنان في وفاة والدة السلطان أبي الحسن علي بن أبي سعيد، وتهدف ثانيا إلى رفع تهاني أبي الحجاج إلى أبي عنان بجلوسه على كرسي الحكم، وينبغي أن نعرف من الآن ما عرفت به منذ العهد القديم بلاطات الغرب الإسلامي وفي صدرها المغرب الأقصى من حرص على أداء واجب التهنئة عندما يستدعي الأمر ذلك، وواجب التعزية كذلك عند الاقتضاء. ومع ذلك فإن أحدا لا يجهل أن المقام يفتح الفرصة للحديث عن موضوعات أخرى، تتصل بالعلاقات الثنائية بين البلدين، وما يتعرض له كل جانب من المتاعب والمصاعب[1].

وهكذا فإن المهمة لا تتعلق فقط بما قرأناه عنها، ولكنها تتجاوز ذلك للمذاكرة حول آفاق المستقبل. وهنا لابد أن نذكر جزءا من نص الرسالة:

..... وإلى هذا، أيدكم الله بنصره، وحكم لمقامكم بشد أَزْره، وإعلاء أمره، فإننا ورد علينا الخبر الذي قبض وبسَط، وجار وأقسَط، وبخس ووفَى، وأمرض وشفَي، وأضحى وظلَّل، وتجهم وتهلَّل، وأمر وأحلى وأساء ثم أحسن، وبشر بعدما أحزن خبر وفاة والدكم، محل أبينا، السلطان العظيم القدر، الكبير الخطر. قدَّس الله طاهر تربته وكرم لحْده، كما أحيا بكم معالم مجده، فيا له من سهم رمى أغراض القلوب فأَثْبتَها. وطرق مجتمعات الأمال فشتَّتها. ونعى إلى المجد إنسان عينه وعَيْن إنسانه. وإلى الملك هُيُولى أركانه. وإلى الدين ترجمة دِيوانِه. وإلى الفضل عميد إيوانِه. حادث نبَّه العيون من سنة غرورها وذكر النفوس بهم أمورها. وأشرق المحاجر بماء دموعها، وأضرم الجَوانِح بنار ولُوعها. وبين أن سراب الأمال سَراب، وأن الذي فوق التراب تراب فمن تأمل الدنيا وطباعها، والأيام وإسراعها، والحوادث وقراعها، بدا له الحق مَن. واستغنى عن الأثر بالعَين. فشأنها أن لا تَفْتر عن سهم تُسدِّده إلى غرض وصحة تعْقُبها بمرض وجوهر ترميه بعَرض. وداء الموت قديم وقربه لا يبقى عليه أدِيم. وكأسه يشربها موسر وعدِيم. دبت إلى كسرى الفُرس عقَاربُه، فلم

[1] عبد الهادي التازي، ابن الخطيب سفيرا، المقال السابق، ص47

تمنعه أساورته ولا مرازبُه. وقصْر قيصَر على حكمه فكَدَّرت مشَارِبُه. وأتبر سيف بن ذي يزن عمدانه، فلم ترعه مضاربه. وأرْدَى تبعا، فلم يكن في أتباعه من يحاربه. لم تدافع عنهم الجنود المجندة ولا الصفاح المهنّدة. ولا الدروع المحكمة، ولا النيّاب المعلمة، ولا الجياد المسومة، ولا الرماح المثقفة المقومة. كل قدم على ما قدم. وجد إلى ما أعد. جعلنا الله ممن يسر لسفره زادا. وقدم بين يديه ريَاطاً شافعا لديه وجهادا.....[1]

ولما توفى السلطان يوسف أبو الحجاج قتيلا في يوم عيد الفطر سنة 755 هـ خلفه في الملك ولده السلطان أبو عبد الله محمد، الذي لقب فيما بعد بالغنى بالله، واستمر الحاجب رضوان مضطلعا برئاسة الوزارة، واستمر ابن الخطيب في منصبه معاوناً له، وندب للوصاية على الأمراء القصر أبناء السلطان المتوفى. وأرسله السلطان الجديد، لأول ولايته، سفيراً عنه إلى السلطان أبي عنان المريني عاهل المغرب، على رأس وفد من رجالات الأندلس، وهو يعرب في رسالته إليه، عن أمله في تجديد أواصر المحبة والوصل، التي كانت بين أبيه وبين السلطان أبي عنان، ويستنصره ويطلب عونه، على مقاومة ملك قشتالة.[2] و نذكر هنا أن السفير ابن الخطيب جريا على العادة المتبعة عندما يرد سفير على عاصمة المملكة تجري مخابرات بظاهر المدينة بينه وبين الحكومة... وهكذا كان فعندما أشرف على فاس وبلغت أخباره إلى صديقه الخطيب الرئيس أبي عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني بعث له هذا يرحب به وهو بمنزل الشاطبي على بعد مرحلة في رسالة تجمع بين الشعر والنثر يقول فيها:

يَا قادما وافي بِكُل نجـــــــاح أبشر بِمَا تَلقاهُ من أفـــــراح
هذي ذرى ملك الْمُلُوك فلذ بـــهَا تنَلْ المنى وتفز بِكُل سمـــاح
مغنى الإِمَام أبي عنـــــان يممن تظفر ببحر بالندا طفـــــاح
من قَاس جود أبي عنان فِي الندا بسواه قَاس الْبَحْر بالضحضاح

[1] عبد الهادي التازي، ابن الخطيب سفيرا، المقال السابق، ص49

[2] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج2، ص23

ملك يفِيض على العفاة نوالـــه قبل السُّؤَال وَقبل بسطــة رَاح
فلجود كَعْب وَابْن سعد فِي الندا ذكر محاه عَن نداه مـــــاح

وعلى نحو ما يعتاد من الدبلوماسيين الناجحين الذين لا يهملون الجواب عن الرسائل الواردة إليهم فقد وجدنا السفير ابن الخطيب يسارع إلى الإجابة عن خطاب الرئيس ابن مرزوق بهذه الرسالة الشعرية النثرية كذلك قال:

راحَتْ تُذكِّرُني كُؤوسَ الـــــــرّاحِ والقُرْبُ يخْفِضُ للجُنوحِ جَناحي
وسَرَتْ تَدُلُّ علَى القَبولِ كمِثْلِ مـــا دَلّ النّسيمُ على انْبِلاجِ صَباحِ
حَسْناءُ قدْ غَنِيَتْ بحُسْنِ صِفاتِـــها عنْ دُمْلُجٍ وقِلادَةٍ ووِشـــاحِ
أمْسَتْ تَحُضُّ على اللِّياذِ بمَنْ جَرَتْ بسُعودِهِ الأقْلامُ في الألْــواحِ
بخَليفَةِ اللهِ المؤيَّدِ فـــــــارِسٍ قَمَرِ المَعالي الأزْهَرِ الوضّاحِ[1]

واستقبل السلطان أبو عنان سفير الأندلس – ابن الخطيب – بترحاب وحفاوة وذلك في الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة 755 هـ . وأنشد ابن الخطيب بين يديه قصيدة رنانة يقول فيها :

خَليفَةَ اللهِ ساعَدَ القَـــــدَرُ عُلاكَ ما لاحَ في الدُّجى قَمَرُ
ودافَعَتْ عنْكَ كفُّ قُدْرَتِـــــهِ ما ليْسَ يسْتَطيعُ دَفْعهُ البَشَرُ
ليْسَ لَنا ملْجأٌ نؤمِّلـــــــهُ سِواكَ أنتَ الثِّمـــال والوَزَرُ
وجْهُكَ في النّائِباتِ بدْرُ دُجىً لَنا وفي المحْلِ كفُّكَ المطَـرُ
والنّاسُ طُرّاً بأرْضِ أندَلـــسٍ لوْلاكَ ما أوطَنوا ولا عمَـروا
وجُمْلَةُ الأمْرِ أنّهُ وطَـــــنٌ في غيْرِ عُلْياكَ ما لهُ وطَرُ
ومَنْ بهِ مُذْ وصَلْتَ حبْلَهُـمُ ما جَحَدوا نِعْمَةً ولا كَفـرُوا
وقدْ أهَمّتْهُمُ نُفـــــوسُهُمُ فوجّهوني إلَيْكَ وانْتَظَـــروا

[1] عبد الهادي التازي، ابن الخطيب سفيرا، المقال السابق، ص51

فتأثر السلطان لإنشاده أيما تأثر، ووعد بإجابة سائر مطالبهم.[1] ثم أثقل كاهلهم بالإحسان، وردهم بجميع ما طلبوه، قال القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد "لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا"[2]. فهذا وإن دل على شيء فإنه يدل على أن لسان الدين تفوق على سفراء زمانه وحتى الذين قبله ممن حفظ التاريخ ذكرهم، إضافة إلى أن هذه الواقعة تبين مدى أهمية السفير، وتقدير الملوك لمواهب وخصال الرجال، فقد أجاب الملك كل مطالبه دون أن يعرفها حتى، على عكس زماننا هذا، حيث أصبح السفراء والحكام يقدمون تنازلات معينة لبلوغ الأهداف المنشودة، وأصبحت تلبية المطالب تقوم على أساس المصالح المتبادلة وأحيانا المنفعة الخاصة، دون مراعاة حق الجوار أو حتى حق الأخوة في الدين.

ويصف لنا ابن الخطيب نجاح سفارته في قوله: "وكان الانصراف بأفضل مما عاد به سفير من واد أصيل، وإمداد موهوب، ومهاد و مهاداة أثيرة، وقطار مجنوب محمول، وطعمة مسوغة. و كان الوصول في وسط محرم سنة ست وخمسين وسبعمائة، وقد نجح السعي، وأثمر الجهد، وصدقت المخيلة".[3]

وفيما يص سفارته لدى القشتاليين يقول عبد الهادي التازي: "بالرغم من أن ابن الخطيب ظل يلازم الصمت حول الجهات التي ذهب إليها كسفير في مذكراته إلا أننا يمكننا استجلاء الحقيقة فيما يتعل بمهماته الدبلوماسية لدى القشتاليين، فوجود البلدين على مقربة من بعضهما...لا يمكن أن لا يسجل لقاءات مباشرة بين الطرفين، كيف لا ولسان الدين اعتاد أن يرحل لتفقد الثغور، فلابد إذن أن يقصد في بعض المرات إلى القواعد الأخرى ليجتمع بالحكام ويصفّي معهم الأمور مباشرة... وبين أيدينا معلومات عن (الحوليات الاسبانية) تتعلق برسائل ابن الخطيب إلى بيدرو الأول الملقب بالقاسي الذي

[1] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج2، ص23
[2] المقري، نفح الطيب، المصدر السابق،ج5، ص99
[3] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج2، ص23

كان على اتصال مستمر بلسان الخطيب، ليس فقط عن طريق المراسلات السياسية التي تعالج العلاقات بين سلطان قشتالة وسلطان غرناطة، بل عن طريق الرسائل الشخصية الخاصة التي تحمل إلى بيدرو نصائح وتوجيهات وتحذيرات من بعض العناصر التي توجد حواليه من أنصار أخيه المنافس له على العرش هنري دي تراستمارا.

ومن المطرف أن نجد ابن الخطيب في الإحاطة يؤيد ما جاء في الحوليات الاسبانية إذ يذكر أن ملك غرناطة أذن له في توجيه المواعظ إلى صديقه بيدرو وأنه نفذ الأمر، بل وأنه تلقى ردا من العاهل القشتالي يشكره فيه على رسائله".[1]

ولقد تمتع ابن الخطيب بمكانة ممتازة لدى الغنى بالله إذ منحه ثقة الملك كأبيه من قبل، كما منحه لقب (ذي الوزارتين) لجمعه بين الكتابة والوزارة وتحدث ابن الخطيب عن هذه الفترة من خدمته في الإحاطة، فيقول: "ولما هلك السلطان (يعنى أبا الحجاج) ضاعف ولده خظوتي وأعلى مجلسي، وقصر المشورة على نصحى إلى أن كانت عليه الكائنة فاقتدى في أخوه المتغلب على الأمر، فسجل الاختصاص، وعقد القلادة، ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته على القبض علي فكان ذلك".[2]

وقد استطاع أن يستخدم ذكاءه وفطنته في توجيه سياسة الدولة النصرية لمدة طويلة، كما قام بالحفاظ على علاقاتها مع دول الجوار سواءًا إسبانيا النصرانية أو دول بلاد المغرب. وتبدو أصالته السياسية في كثير من رسائله ونبوءاته. ولعل أهم ما يؤثر عنه في ذلك نظراته الصائبة إلى مصير الأندلس، فقد كان هذا المؤرخ، الثاقب الذهن، الذى يرى المستقبل من عبر الماضي، والسياسي البعيد النظر، يرى في حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحاً، ويتوقع بنافذ بصيرته ما هو قادم من نهاية محتومة لهذا الوطن الذي مزقته الأهواء وأضنته الفتن. و كان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن، ويهيب بقومه، وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر، أن يبادروا إلى غوثه

[1] عبد الهادي التازي، ابن الخطيب سفيرا، المقال السابق، ص64

[2] ابن الخطيب، الإشارة إلى أدب الوزارة، المصدر السابق، ص15

ونصرته، وإلى الجهاد في سبيل الدين والوطن. وله في ذلك رسائل عديدة مؤثرة يوجهها إلى قومه، ويلفت نظرهم إلى الخطر الداهم، الذي لا محيص من وقوعه، إذا استمر تنابذهم وتواكلهم، ومنها ما وجه إلى ملوك العدوة من بني مرين، يستنهض هممهم لنصرة الوطن الأندلسي وإنجاده قبل أن يفوت الوقت ، وهى رسائل تمتاز بروعة أسلوبها.

وأكثر من ذلك كله في الدلالة على شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذي ينتظر الأندلس ما وجهه في وصيته إلى أولاده الثلاثة، عبد الله ومحمد وعلي، من النصح بعدم الإسراف في اقتناء العقارات بالأندلس، إذ يقول لهم :"ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضه للمذلة والإحتقار، وساعياً لنفسه إن يتغلب العدو على بلده، في الإفتضاح والافتقار، ومعوقاً عن الإنتقال، أمام النوب الثقال، وإن كان رزق العبد على المولى، فالإجمال في الطلب أولى".[1]

ويذكر المقري موقفا لابن الخطيب للدلالة على فطنته وسرعة بديهته فيقول :"وقال لسان الدين، بعد ذكره أن ملك النصارى دون جانجه بن دون الفنش استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ولاذ به، ورهن عنده تاجه ذخيرة النصارى، ولقيه بصخرة عباد من أحواز رندة، فسلم عليه، ويقال : إن أمير المسلمين لما فرغ من ذلك طلب بلسان زناتة الماء ليغسل يده به من قبلة الفنش أو مصافحته. ما نصه: "والشيء بالشيء يذكر، فأثبت حكاية اتفقت لي بسبب ذلك، أستدعي بها الدعاء ممن يحسن عنده موقعها. وهي أن اليهودي الحكيم ابن زرزار على عهد ملك النصارى حفيد هذا الفنش المذكور وصل إلينا بغرناطة في بعض حوائجه، ودخل إلي بدار سكناي مجاور القصر السلطاني بحمراء غرناطة، وعندي القاضي اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة، وبيده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبي عبد الرحمن ابن

[1] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج2، ص52

السلطان الكبير المولى أبي الحسن، وكان محمد هذا قد فر إلى صاحب قشتالة، واستدعي من قبله إلى الملك، فسهل له ذلك، وشرط عليه ما شاء، وربما وصله خطابه بما لم يقنعه في إطرائه، فقال لي : مولاي السلطان دن بطره يسلم عليك، ويقول لك: أنظر مخاطبة هذا الشخص، وكان بالأمس كلباً من كلاب بابه، حتى ترى خسارة الكرامة فيه"، فأخذت الكتاب من يده وقرأته، وقلت له: "أبلغه عني أن هذا الكلام ما جرك إليه إلا خلو بابك من الشيوخ الذين يعرفونك بالكلاب وبالأسود، وبمن تغسل الأيدي منهم إذا قبلوها، فتعلم من الكلب الذي تغسل اليد منه ومن لا، وإن جد هذا الولد هو الذي قبل جدك يده واستدعى الماء لغسل يده منه بمحضر النصارى والمسلمين، ونسبة الجد إلى الجد كنسبة الحفيد للحفيد، وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه، وأنت معرض إلى اللجإ إليه فيكافئك بأضعاف ما عاملته به". فقام أبو الحسن المستقضي يبكي ويقبل يدي، ويصفني بولي الله، وكذلك من حضرني، وتوجه إلى المغرب رسولاً فقص على بني مرين خبر ما شاهده مني وسمعه، وبالحضرة اليوم ممن تلقى منه ذلك كثير، جعل الله تعالى ذلك خالصاً لوجهه"[1]

ولإبن الخطيب أيضا فصول في السياسة الملكية، مما تضمنته رسالة "كتاب الوزارة ومقامة السياسة" يشرح فيها واجب السلطان، وخلال الوزير الصالح، وأحوال الجند، وما يجب لهم من توفير الجراية، وتعويدهم على حسن الإنقياد، والعمال ووجوب حسن اختيارهم، بتوفر الكفاية والأمانة، وفي السياسة المنزلية أو الخاصية، من السهر على تربية الأولاد، وأحوال الخدم، ووجوب أخذهم بحسن الانقياد، والحرم وكيف يعاملن. ويورد ابن الخطيب هذه الفصول في صورة مقامة بطلها الخليفة الرشيد.[2]

[1] المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج5، ص120

[2] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج2، ص52

المبحث الثالث: عبقرية أدائه الإداري من خلال الرسائل الديوانية

شهد فن الرسائل في القرن الثامن الهجري، تطورا ملحوظا وتشبعا في موضوعاته واتجاهاته تبعا لتشعب أمور الحياة في المجتمع الأندلسي ذات القرن. ومهما يكن من أمر فقد تهيأ لأدب الرسائل من عوامل الازدهار والشيوع ما بوأه منزلة رفيعة في هذا العهد. وقد كان للشعر حظوة لدى الملوك. فاعتز الشعراء بذلك وسمت مكانتهم، وحفلت بهم دور الأمراء ودرّ عليهم الرزق، فنعموا، كما اتفق لابن الخطيب.[1]

وقد تأثرت الرسائل السلطانية بالجانب السياسي والإداري للدولة، والظروف العصيبة التي تمر بها و المتمثلة في الاضطرابات والفتن الداخلية و الخارجية وأمور الحكم آنذاك. ولهذا فقد عالجت الرسائل كل هذه العلاقات والتنظيمات الداخلية والخارجية بحثا عن مصالح مملكة غرناطة المختلفة من خلال توثيق صلاتها بالعالم الإسلامي، وتحقيق سيادتها وحماية حدودها الجغرافية وكذا الحفاظ على وجودها والدفاع عن كيانها الإسلامي والحضاري. ومن هنا تنوعت وتباينت موضوعات الرسائل التي حبرها لسان الدين عن سلاطينه، فقد كانت ظروف الأيام هي التي تخط حروف المكاتبات. فجاءت أغراضها على تهاني وفتوحات، وأخرى في التعازي عند الحوادث والثانيات ورسائل الاستنجاد وطلب المعونات ومجموعة حوت تشكرات على مختلف العطاءات وثنية عن الشفاعات فهذه أبرز موضوعات الرسائل السلطانية والتي جمعها ابن الخطيب في كتابه **(ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)**. وهي وإن اختلفت غايتها التي أنشئت لأجلها إلا أنها تتماثل إلى حد ما في عناصرها البنائية وهيكلها الخارجي.

يعتبر رصيد ابن الخطيب الثقافي من أهم المؤثرات في كتاباته التاريخية. فعلاوة على اطلاعه الواسع في ميدان التاريخ، برع في الأدب والسياسة والتصوف والجغرافية والطب وساهمت معرفته الموسوعية في إغناء كتابته التاريخية بإعطائها طابعا متنوعا

[1] جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، دار المعارف، مصر،1966، ط2، ص63

ومتشعبا، ويعود الطابع الشمولي في ثقافة ابن الخطيب إلى طبيعة التعليم الاسلامي في الأندلس، الذي شمل علوما متنوعة منها العلوم الدينية والأدب والعلوم التي يطلق عليها اليوم مصطلح العلوم الانسانية والاجتماعية مثل التاريخ .[1]

ومن الرسائل التي نجدها في كتاب الريحانة ما كتبه ابن الخطيب عن السلطان أبي الحجاج إلى عدد من السلاطين منهم حاكم الدولة المرينية بالمغرب مستنجدا بهم في شأن جبل الفتح مدينة رندة، فبدأ رسالته كالآتي :" المقام الذي له المجد الشهير المآثر، الكبير المفاخر، والأصالة المتواترة عن الملوك الأكابر، والحسب الذي تشهد به صدور الملاحم، وظهور الجياد، وبطون الدفاتر. مقام محل أخينا. الذى نكبر مقامه الرفيع الشان، ونوجب له الحق بما اقتضاه حسبه الراسخ البنيان، المتناسق تناسق قلائِد الجمان، بالملوك الأعيان. السلطان الكذا أبي عنان ابن محل أبينا الذى نعظمه ونجله، ونوجب له الحق الذي هو أهله، السلطان الكذا صاحب الجهاد المقبول، والرفد المبذول، أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الحسن، ابن السلطان المؤيد المعان، صاحب الجود الشهير في الأقطار، والبطل المتألق الأنوار، والمآثر التي هي أشهر من محيا النهار، أمير المسلمين، وناصر الدين....."[2]، وهنا نرى أن لسان الدين بدأ رسالته بذكر المقام مقام السلطان المرسل إليه وتمجيده ونعوته بأفضل النعوت التي تليق به، فهو يسهب بشكل ملحوظ في هذه الألفاظ والعبارات الرنانة التي تَطرُق أذن السامع فتُطربها، فتجعله يستحضر حواسه ليتلقى معانيها. وهذا يعكس المكانة العلمية والحنكة السياسية لابن الخطيب، فهو بهذه الرسالة يبعث في نفس قارئها الفضول والشوق لمعرفة كاتبها ولقائه، والدليل في ذلك حفاوة الإستقبال من سلطان المغرب وكرمه عند قدوم ابن الخطيب إليه في نكبته الأولى والثانية. ثم نجده يحمد الله ويثني عليه بما هو له

[1] امحمد بن عبود، مباحث في التاريخ الأندلسي ومظاهره، مطبعة عكاظ، الرباط،1989، ص113

[2] ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، المطبعة العربية الحديثة، ط1، القاهرة،1980، ج1، ص359

أهل ويصلي على رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم وهذا نسقه في أغلب رسائله، ليدخل بعدها في مضمون الرسالة فيقول :" من حمراء غرناطة حرسها الله، ولا زايد بفضل الله سبحانه، ثم بما عندنا من المعرفة بمجدكم الذي أقل الملك بنيانه ورفع شأنه، إلا ما يرجى من عوائد الله الجميلة وصنائعه الكفيلة، وسننه الجزيلة، وجانب أخوتكم موفى حقه من التعظيم الذي يجب لمجده العالي وحسبه الصميم، وأصالته المعضود حديثها بالقديم، المتناسق فخرها تناسق العقد النظيم وإلى هذا أنجح الله في مرضاته أعمالكم، وعرّفكم من عوارف رضوانه، ما يتكفل بنيل الحسنى لكم. فموجبه إليكم أن هذه الجزيرة الأندلسية، من لدن أذن الله في افتتاحها بسيوف هذه الأمة الكريمة ورماحها، وأطلع في آفاقها القصية لهذه الأمة المحمدية، نور صباحها، حتى تبوأها الإسلام داراً، وحمد فيها استقراراً، وملأ هضابها ووهادها أنواراً، وأوسع فيها من دعا مع الله إلها آخر هواناً وصغاراً....."[1]وهنا يذكر الكاتب كيف أنعم الله تعالى على هذه الجزيرة بالفتح الإسلامي فأضحت منورة بنوره، واعتزت بعزه، وظفرت بعظمته وحفلت ببركته، وأوسع فيها من دعا مع الله إلاها آخر هوانا وصغارا، إلا أنها تطاولت أيدي العدو النصراني وطمع فيها فيقول :" وصار إلى نظرهم جملة من بلادها مثل الجَبَل ورندة ومربلة وما إلى ذلك، حرسها الله، ليكون محط رحال المدد، ومستقر ما يجيزونه من الفرسان والعدد. فقر جنابها، وقويت أسبابها، وأعدوا لغزوهم ركاباً، ولجهادهم الأرضى باباً"[2] وصف الكاتب الحال التي تبيت فيها غرناطة من تكالب العدوّ ومطمعه في النيل منها والسعي لغزوها، مستخدما جانب التذكير ببطولات أسلافهم الجهادية الذين نصروهم بجيوشهم وأساطيلهم، وآثروا النّفس والنفيس في سبيل إخراج المستعمر الغاصب حتى علم العدو بأنَّ لها ناصرا عزيز الأنصار فتولَّى عنها. ثم قال :" فكان من عزم السلطان المجاهد الأرضى، جدكم الأعلى، ما هو معلوم، وفى صحف الفخر مرسوم، من اقتحامه

[1] ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، المصدر السابق، ج1، ص361

[2] نفسه، ص362

لجج البحار الطامية، وثَبَج الأمواج المترامية، وجهاد الأمم الباغية، وفل الجيوش الطاغية، حتى عز الإسلام بمضا حسامه، وسعدت الملة المحمدية بسعادة أيامه. ثم سلك ولده جدكم السلطان المعظم أبو سعيد رحمه الله سبيله واتبع دليله، فجهز إلى نصرها جيوشه المنصورة وأساطيله، وسرب إليها ماله الجم وقبيله، حتى علم أعداؤها أن لها ناصراً عزيز الأنصار، وملجأً منيع الجوار. ثم تلاه والدكم محل أبينا السلطان المعظم أبو الحسن، فجاهد عدو الله فيها حق جهاده، وشهد البر والبحر بصدق جلاده، وسمح فيها بنفسه النفيسة وأمواله العظيمة وأولاده....."[1]ومن بعد يدعو الملوك الذين كتب إليهم التأسي بسنة أجدادهم، وأن يسلكوا مسلكهم الشريف في نصرتها وإمدادها و حماية بلادهم والمثابرة على تخليد الفخر وإحراز مرضاة الله التي هي أنفع الذخر، مستعينا بجانب التأثير النفسي والشعور الديني حتى تبلغ الرسالة أثرها في النفس، وشحذ العزائم ولإثارة الحمية الإسلامية، من خلال ذكره لنكبتهم من نقص العدة والعدد وشدة بطش ملك قشتالة في الظفر بمطمعه وأماله فيقول :"إذ تعرفنا أن ملك قشتالة، قد طمع في تلك البلاد المذكورة وكلب عليها، وحشد قومه إليها، وأعلق بها أطماعه، وحرّك لها أشياعه وأتباعه وإن آماله بها حائمة، والحركة إليها في أرضه قائمة، فإن من بها من الحماة وذوى المرتبات قد اختلت أحوالهم، بسبب ما تأخر من واجباتهم، وتعذر في هذه المدة الطويلة من مرتباتهم، فتبدد الكثير من عددهم، وضاع ما توفر على الأيام من أسلحتهم، وعُددهم، واشتد الإشفاق على تلك البلاد المسامة أن يعاجلها هذا العدد بانتهاز فرصة، ويجرع العباد والبلاد بالله أفظع غُصَّة، ويهتبل الغرة في بعض معاقلها المنيعة، ومصانعها التي اعتمدتها أسلافكم بحسن الصنيعة، ويطغى نور الله في آفاقها، ويستبيح حماها، واستمساكها بذلك الملك واعتلاقها"[2] وهنا شرع بالتوجه لطلب العون والمساعدة بأسلوب الترغيب لما للبلاد للأندلسية مكانتها في القلوب، وبما سيجلب الجهاد فيها وافر الأجر

[1]ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، المصدر السابق، ج1، ص362
[2]نفسه، ص363

والثواب وملأ صحائفهم بالحسنات ثم يذكر غاية مخاطبته لهم، وهو أن ينظروا إلى حالهم وأن يبادروا بما عندهم من عتاد يعينهم على استكمال جهادهم ومواجهة عدوهم فيقول: "فخاطبناكم بهذا الكتاب، نشرح لكم أحوالها، ونطلب من نظركم لها من يمهد خلالها، وييسر آمالها، وإن ظهر لكم أن تبادروا بشيء من المال، الذي غناؤه فيها في الوقت كبير، وقليل ما يرد في تلك الجهة كثير، تسبقون به حركة العدو إليها، وتقدمونه مدداً بين يديها، فذلك ما لا ينكر على حسبكم الرفيع الأصالة، الشهير الجَلالة، فلم تدخر الأموال لأهم من هذا الغرض، ولا وضعت في أولى من هذا الواجب المفترض. وإذا تعرف العدو أن غايتكم بها موصولة، ومكارمكم فيها مبذولة، كذبت مساعيه، وخاب بحول الله أمله الذى يرتجيه. وهذه البلاد الأندلسية عصمها الله ووقاها، وحفظ كلمة الإسلام وأبقاها، هي عدة لأسلافكم الكرام إلى معادهم، ومتجر حسناتهم و ركاب جهادهم، وصحيفة أعمالهم الزكية، ومنصة آثارهم الملوكية، لم يزل بعزائمهم استعدادها، ومن مكارمهم استمدادها، وأنتم صميم ذلك المجد الذي تعودت إعانته ونصره، وعرفت من عوارفه، مالا يطاق حصره، وأولى من يحقق ظنونها، ويشرح صدورها، ويقر عيونها. وقد وجهنا إلى جبل الفتح مدداً من الرماة، وشرعنا في اتباعهم بجملة من الرجال الرامحة الحماة، يقيمون لنظر من به بخلال ما تتبلج الاخبار – ويظهر ما يبرزه الليل والنهار، وعرضنا عليكم هذا القصد، الذي ما زال سلفكم رضى الله عنه، عليه يثابرون، وبمزيته على الملوك يفتخرون، ومرضاة الله سبحانه، بمبادرته يبتدرون، وأنتم تعملون في ذلك إن شاء الله ما يليق، بمجدكم الأصيل، وحسبكم الأثيل، حملكم الله على ما يكون لكم فيه الذكر الحميد، والقصد السديد، والعناية الإلهية التي لا تبيد. وهو سبحانه يصل سعدكم، ويحرس مجدكم، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته.[1] سعى الكاتب في رسائل الإستنجاد إلى طرح المبررات التي استدعت طلب النجدة، من خلال وصف حال المسلمين من تكالب الأعداء عليهم

[1] ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، المصدر السابق، ج1، ص364

والتحريض للقضاء منهم واستعمل التعابير الدينية مع تضمين هذه الرسائل شيئا من الآيات القرآنية التي تحث على الجهاد وفضله، وما يذخره الله تعالى للمجاهدين. وبهذا فقد جاءت الألفاظ منتقاة بعناية بحيث تستثير الحمية والشفقة والعطف، وتخاطب الوجدان لتكون أكثر أثرا في نفوس المرسل إليه، فيبادروا لتدارك الوضع بالعزائم لائتمان الخائف وتعود المنطقة لأحسن أحوالها. ويختتم لسان الدين ابن الخطيب رسائله الديوانية بالدعاء للمخاطب ويتحرى في أدعيته الألفاظ التي تتوافق مع مقتضى الحال، ثم يذيل بالقول المأثور السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما في التهنئات فيذهب الكاتب إلى بسط الكلام في شكر الله وتعظيم النصر وذكر ما يتصف به الممدوح من عزم وإقدام وجلد، ووصف جيشه وعدته وعدده والتهويل بذكر العدو ووصف جمعه وعدده وغير ذلك مما تقتضيه عظمة النصر وحال الممدوح.[1] ومما كتبه لسان الدين بن الخطيب في هذا الغرض عن السلطان الأندلسي (الغني بالله) رسالة بعث بها إلى سلطان مصر بعدما انتهت إليه أخبار مدينة الإسكندرية بدخول عدوّ قبرس، ثم رجع المسلمون إليها وتدارك السلطان أمرها ورام بأخذ الثأر من العدوّ، فأنشأ الأساطيل وأجهز بهم وظهر عليهم ونال منهم قائلا:" أئمة الهدى الأبواب الشريفة التي تَعْنُو لِعِزَّة قدرها الأبواب، ويُعْتَرى إلى نسب عدلها الحكمة والصواب، وتناديها الأقطار البعيدة مفتخرة بولائها، واصلة السبب بعلائها، فيصدر بما يشفى الجوى منها الجواب..... الملك المنصور، أبو الفتوح شعبان، ابن الأمير الرفيع المجادة، الكريم البنوة والولادة، الطاهر الظاهر، الكبير الشهير..... أما بعد حمد الله الذي جعل قلادة الإسلام على الدوام، آمنة من الإنخرام والإنتشار، مفصلة النظام بحرز المآثر العظام والآثار، مُعرَّف أهلها في حُزن البسيطة وسهلها، عوارف الصنع المثار، وإقالة العثار، القوى العزيز، الذي لا يُغالب قدره بالاحتشاد والاستكثار..... بحمراء غرناطة، دارِ ملك الجهاد بجزيرة الأندلس، و إلى الله

[1] أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، منشورات الدائرة العربية، بيروت، 1935، ج1، ص230

عنها الدفاع، وأنار بمشكاة نوره، الذي وعد بإتمامه، الأعلام منها والأيفاع ، ووصل لها بشرف مخاطبتكم الارتفاع والانتفاع ، حتى تشفع بتهانيكم الأوتار..... وسول لهم الشيطان كيّادة ثغر الإسكندرية شجى صدورهم، و مرمى آمال غدُورهم، ومحومُ قديمهم، ومتعلَّل غريمهم، ليهتموا ثغور الإسلام بصدمتها، ويقودوا جناب السواحل في رمتها، ويرفعوا عن دينهم المعرة، ويتلقفوا في القدس كرة الكرَّةَ، ويفصلوا ما امتد من ظلال الإسلام، ويُشيموا سيوف التغلب على الشام، ويحولوا بين المسلمين ، وبين محط أوزارهم، وحجهم ومزارِهم، وبيت ربهم، الذي يقصدونه من كل فج عميق، ويركبون إليه نهج كل طريق، وقبر نبيهم الذى يطفئون بزيارته من الشوق كل حريق، ويكحلون الجفون بمشاهدة آثاره عن بكاء وشهيق، وشوق بذلك الحبيب خليق، ويقطعوا حبل المسلمين بحيث لا يتأَنَّى بلوغ فريق، ولا غرض تشريق، والله من وراهم مُحيط، وبدمائهم مُشيط، وبعباده بصير، ولدينه الحق وليٌ ونصير **(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)**[1] فما هو إلا أن طما جرادهم، وخلص إليها مرادهم، وفاض عليها بحرهم، وعظم من المحلوك أمرهم..... وظهر الحق على الباطل، والحالي بزينة الله على العاطل، فخرج العدو الخاسر عما حازه، والسيوف تُرْهِقُه حيث تلفيه، والسهام تُثبته وتنفيه..... فبادرنا عند تعرف الخبر المختال من أثواب المسرَّة في أبهى الْحِبَر، المُهْدِى أعظم العبير، إلى تهنئتكم، تطير بها أجنحة الإرتياح، مبارية للرياح، وتستفزنا دواعي الأفراح، بحسب الوُد الصراح، وكيف لا يسر اليسار بيمينه، والوجه بجبينه، والمُسلم بدينه. وخاطبناكم مهنئين، ولولا العوائق التي لا تبرح، والموانع التي وضحت حتى لا تُشْرح، ومكابَدَةُ هذا العدو الذي يأسو الدهر به ويَجْرح، لم نَجْتز بإعلام القلم من إعمال القدم، حتى نتشرف بالورود على تلك المثابة الشريفة، ونَمْتَاز بزيارة الأبواب المُنيفة، فَيُقضى الفَرض تحت رعيها، وبركة سعيها، لاكن المرء جنيب أمله، ونيَّةُ المؤمن أبلغ من عَمَلَه. فهنيئاً بما منحكُم الله من ظَفَرٍ شهدت برضى الله مراسمه، وافترت

[1] سورة الصف، الآية 9

عن ثغور العناية الربانية مباسمه، وتوفرت لديكم مواهبه ومقاسمه، ويهنى البيت المقدس، مكان فضل الله ومنه، وسلامة مجنه، والإسلام عصمةُ ثَغْره المؤشَر، وطهارة كتابه المنشَر، وجمال عنوانه، وقِفْلُ صِنْوانه، وباب إيوانه، بمرفإ الفُسطاط، ومركز لواء الرباط، ومحل رحال الاغْتباط، ومُتخير الإسكندرية عن البناء والاختطاط. ومما زادنا بجحاً بهذا الفتح وسروراً زايداً بهذا المَنْح، ما تحققنا أنه يثير من شفقة المسلمين لهذا القطر الذى لا يزال يطرقه ما طرق الإسكندرية على مر الأيام، ويُجلب عليه براً وبحراً عَبدة الأصنام، بحيث البر موصول، والكفر بكثرة العَدَد يَصُول، ونيران الجوار مُترامية للعيان، والفراسخُ القليلة متوسطة بين مختلف النحل والأديان، والعدد لا يُنسب، والصريخ إلا من عند الله لا يُحسب، فتُنْجِدُنا بالدعاء ألسنة فُضَلائِهِ، وتُسهمنا خواطر صالحيه وأوليائه، والله لا يقطع عن الجميع عوائد آلائه، ويُعرفنا بركة خاتم أنبيائه، وينصرنا في أَرْضِه بملائكة سمائه. وقد كان اتصل بنا في هذه الأيام الفارطة الذخر الذى ملأ اليد استكثاراً، والجلد استعداداً واستظهاراً، والهمم فخاراً، وأضاء القطر أنوارا، جوابكم الكريم، يشيم من نَفَحاته شَذَى الأخضر والجليل، ويلتمس من خلال حافاته بركات الخليل، ويقرب الوجوه به آثار المعاهد، ويلتمح من ثنايا بوارقه بوارق الفوائد، فأكرم به من وَافِد مَخْطُوب، وزائِر مَرْقُوب، صَدَعنا به في حَفْل الجهاد انتحاء وافتخاراً، ثم صناه في كرائم الخزائن اقتناء للخلف وادخاراً، وجعلنا قراه شكر العباد روضاً معطاراً، وثناً يبقى في الخافقين مطارًا، ودعاة يُعلى الله به لمقامكم السني في أوليائه مقداراً، ويجهز به لِمُلْككُم كما فعل أنصاراً، ويُثيبكم بالجنة التي لا يرضى السعداء بغيرها قراراً، والله عز وجل يجعل لأفلاك الهنا على مخاطبة مقامكم الرفيع العلا مداراً، ويقيم الشكر ألزم الوظائف بحقكم ابتداراً، والثناء أولى ما تحلى به مجدكم شعاراً، ويُبقيكم للإسلام رُكناً شديداً وظلا مديداً، وسماء مدراراً، ما استأنفت البدور إبداراً، وعاقب الليل نهاراً. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته"[1] وكعادته بدأ الكاتب رسالته بما يناسب المقام، فحمد الله تعالى وصلى على نبيه المختار،

[1] ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، المصدر السابق، ج1، ص295-302

ثم ذكر الحال التي استدامت عليها الأندلس من مكابدة جيوش الإسبان والإستعداد لرد الخطر الداهم عليهم، ثم يشير بعدها إلى حادثة الإسكندرية، بحيث يشترك المسلمون في الدفاع عن أرضهم في سبيل الله، بعد ذلك يقدم صورتين متقابلين؛ حين دخل الإسبان المدينة وما أحدثوه من نهب وهدم وأثره السلبي في نفوس الناس، ثم يصف الحال التي أعقبت خروج الإسبان، وفي الختام يظهر مدى انبساطه وانشراحه بهذا النّصر التي حازت به مدينة الإسكندرية معتذرا عن عدم مقدرته المجيء، وهذا بسبب الأخطار التي تهدد غرناطة فاكتفى ببعث رسالة تبلغ المقصود ثم يدعو الله تعالى لتوفيق السلطان مع الإشارة إلى حاجة الأندلس إلى المساندة من جميع المسلمين لأنّها ليست ببعيد من هذه البلاد العربية التي تم تحريرها. ويتكرّر هذا البناء في أغلب رسائل التهنئة بالنصر ويكون الاختلاف في التهنئة بالزواج أو الشفاء بأن يتحدَّث المرسل وكأنه هنأ نفسه بهذه المناسبة السعيدة ويرتكز على الحدث السعيد واصفا إياه بمبالغة كبيرة .

إن من يقرأ رسائل ابن الخطيب السلطانية يجد نفسه أمام عالم لغوي وفقيه ديني امتلك ناصية اللغة ووقف على ذخائرها وأسرارها، ووضح ذلك في رسائله وضوحًا جليا يجل عن الحصر، فقد تنوعت ألفاظه و أساليبه. عن استخدامه ألفاظاً ذات صدى في كل رسائله ومترادفات متنوعة وإطناب ملحوظ، واستخدام جمل اعتراضية وتنوع أساليب. ولا أظن أنه يوجد من بين كتاب الأندلس من يضاهي لسان الدين ابن الخطيب في ثراء محصوله اللغوي الذي وسع قاموسه، وقد مكنه هذا المحصول من اختيار الألفاظ المناسبة للمعنى ووضعها في مواضعها الصحيحة، فهو حين يحث على الجهاد ونصرة الأندلس يكثر من الألفاظ الدالة على ذلك فنجد مثلاً تكرار كلمة الجهاد بشكل ملحوظ، وكذا ألفاظ

النصر، الخيل، الأسطول، الرباط، الحرب، السلم، السيوف، المجاهدين، الحسام، الفتح ... الخ[1].

و لم يتقيد ابن الخطيب، في كتاباته، بمذهب معين من مذاهب النثر العربي فكان يتقلب بين هذا وذاك. يعتمد تارةً هذا ويعتمد تارةً ذاك، إلا أنه اعتمد في أحيان كثيرة مذهباً بعيداً عن الطبع، بعيداً عن الانطلاق والتفجر، مذهب التنميق الذي يمتد في إطناب وإسهاب، الذي لا يهمه الأداء بمثل ما يهمه التحبير والزخرفة، وإظهار البراعة والمهارة، هذا المذهب اللفظي التكراري، الذي يحتال على السجع فيجعله سجعاً ضمن سجع ويُطرِز الكلام بأنواع من الجناس والألوان، وبأنواع من الإشارات التاريخية والعلمية.[2]

[1] رزق عمري بركات، رسائل ابن الخطيب السلطانية: دراسة تحليلية، مجلة الدراسات التربوية والإنسانية، جامعة دمنهور، مصر،2013، العدد31، ص15

[2] حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، لبنان،1986 ، ط1، ص928

الفصل الثالث : ابن الخطيب بين النكبة والاغتيال

المبحث الأول: المحنة والإستدراج

لما توفي السلطان أبو الحجاج سنة خمسة وخمسين وسبعمائة خلفه ابنه محمد واستبد عليه رضوان مولى أبيه، وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل لأنه كان يحبه أكثر من أخيه، فلما استقام الأمر لهم حجبوه ببعض قصورهم، وكان لإسماعيل صهر من أبناء عمومته وهو ابن الرئيس أبي سعيد، فكان هذا الأخير يسعى لإقامة اسماعيل على السلطة بطلب منه، وأخذ يتحين الفرصة للإطاحة بمحمد حتى أتته فرصة في الدولة بخروج السلطان إلى بعض منتزهاته برياضه، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة ستين في أوشاب جمعَهم من الطغام لثورته، وعمد إلى دار الحاجب رضوان، فاقتحم عليه الدار وقتله بين حرمه وبناته وقربوا إلى إسماعيل فرسه وركب، فأدخلوه القصر وأعلنوا بيعته، وقرعوا طبولهم بسور الحمراء، وفر السلطان من مكانه بمنتزهه، فلحق بوادي آش، وغدا الخاصة والعامة على إسماعيل فبايعوه، واستبد عليه هذا الرئيس ابن عمه فخلعه لأشهر من بيعته، واستقل بسلطان الأندلس.[1]

وعندما وصلت أخبار الإنقلاب الذي حصل في الأندلس إلى السلطان المغربي أبي سالم أرسل إلى السلطان الجديد إسماعيل يطلب منه الإفراج عن هذين الرجلين... ولقد كان أبو سالم لجأ إلى الغني بالله من قبل حينما تغلب عليه أخوه السلطان أبو عنان ونفاه إلى الأندلس فأكرم الغني بالله مثواه، فلما وقع الإنقلاب بالأندلس وفقد الغني عرشه وفر منبوذا إلى وادي آش رعى له أبو سالم عهد الصداقة والوفاء وبعث إلى غرناطة بسفير مغربي مرموق كان هو أبا القاسم التلمساني لهذا الغرض. والإستجابة لهذا الطلب لم تكن سريعة، إلا عندما هددت مصالح إسماعيل، فلقد ورد في إفادة ابن الخطيب بأن "الشفاعة جاءت من ملك المغرب بخطه وأنه اشترط لمتابعة مساعدة غرناطة إطلاق سراحي ... "وهكذا فقد كان هناك تهديد بفسخ العقود المبرمة بين فاس وغرناطة... ولا

[1] ابن الخطيب، نفح الطيب، المصدر السابق، ج5، ص95

شك أن الطرف الآخر كان يعي جيدا معنى قطيعة المغرب للأندلس. إن ذلك يعني أن تمسي الأندلس نهباً للآكلين ومرتعاً للطامعين والمتربصين....."

ومن هنا وجدنا أن غرناطة تستجيب لرغبة المغرب وتسمح للملك السابق و وزيره اللاحق بأن يعبرا البوغاز من ثغر (مربلة)[1] إلى (سبتة)[2]. وهكذا أمسى ابن الخطيب في عداد اللاجئين السياسيين على حد التعبير العصري اليوم.[3]

وصل الركب فاس في 6 محرم 761 هـ/ 8 ديسمبر 1358م، حيث استقبلهما السلطان أبو سالم استقبالاً حاراً، واحتفل بقدومهم احتفالاً عظيما، وألقى ابن الخطيب في هذه المناسبة بين يدى المضيف قصيدته الشهيرة يستنصره ليعين سلطانه على أمره، وذلك حيث يقول:

قصدْناكَ يا خيْرَ المُلوكِ على النّوى لتُنْصِفَنا ممّا جَنى عبْدُكَ الدّهْـرُ

كفَفْنا بكَ الأيّامَ عنْ غُلَوائِـــــها وقدْ رابَنا منْها التعسّفُ والكِبْـــرُ

وعُذْنا بذاك المجْدِ فانْصَرَم الــرّدى ولُذْنا بذاكَ العزْمِ فانهزَمَ الذّعْـــرُ

ولمّا أتيْنا البحْرَ يُرْهِبُ موْجُـــــهُ ذكَرْنا نَداكَ الغَمْرَ فاحْتُقِرَ البحْــرُ

وأنت الذي تدْعى إذا دهَمَ الــرّدى وأنتَ الذي تُرْجى إذا أخْلَفَ القَطْرُ

---

[1] مربله : بالفتح ثم السكون، وباء موحدة، ولام مشددة مضمومة، وهاء ساكنة : هي ناحية من أعمال قبرة بالأندلس(شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1995، ج5، ص99)

[2] سبتة هي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس، وهي مدينة حصينة تشبه المهدية التي بإفريقية على ما قيل لأنها ضاربة في البحر داخلة كدخول كف على زند، ومن جنوبيها بحر ينعطف إليها من بحر الزقاق ، وبينها وبين فاس عشرة أيام (ياقوت الحموي ، المصدر السابق، ج3، ص182)

[3] عبد الهادي التازي، ابن الخطيب سفيرا, المقال السابق، ص66

ومثلُكَ مَنْ يرْعى الدّخيلَ ومَنْ دَعا بِيا لمَرينٍ جاءَهُ العِزُّ والنّصْـــرُ

وخُذْ يا إمامَ الحقِّ بالحقِّ ثـــأرَهُ فَفي ضِمْنِ ما تأتي بهِ العِزُّ والأجْرُ [1]

ولما انتهى فيها إلى قوله " فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر"، قال له بعض من حضر ولعله أراد الغض منه: أحسنت يا وزير فيما قلت، وفي وصف الحال والسلطان، غير أنه بقي عليك شيء، وهو ذكر قرابة السلطان موالينا بني مرين وهم من هم، ولا ينبغي السكوت عنهم، فارتجل ابن الخطيب حينئذ قوله "ومن دون ما تبغيه – إلى آخره" حتى تخلص لمدح بني مرين أقارب السلطان بما لا مرمى وراءه، ثم قال بعد ذلك معتذراً: " أمولاي غاضت فكرتي – إلى آخره". وهذا إن صح أبلغ مما وقع لأبي تمام في سينيته، لأن أبا تمام ارتجل بيتين فقط، ولسان الدين ارتجل تسعة عشر بيتاً[2]، ويشهد ابن خلدون المؤرخ ذلك الحفل – بصفته من كبار رجال البلاط المريني – فيصفه لنا ويقول : "إن ابن الخطيب استولى على سامعيه فأبكاهم تأثرا". [3]

وقصة أبي تمام أنه أنشد أحمد بن المعتصم بحضرة أبي يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي وهو فيلسوف العرب:

إقدامُ عَمرو في سَماحةِ حَاتِمٍ في حِلمِ أحنَفَ في ذَكاءِ إِيَاسِ

فقال له الكندي : ما صنعت شيئاً، شبهت ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين بصعاليك العرب ! ومَنْ هؤلاء الذين ذكرت ؟ وما قدرهم ؟ فأطرق أبو تمام يسيراً، وقال:

[1] ابن الخطيب، الإشارة إل أدب الوزارة، المصدر السابق، ص15-17

[2] ابن الخطيب، نفح الطيب، المصدر السابق، ج5، ص97

[3] ابن الخطيب، الإشارة إل أدب الوزارة، المصدر السابق، ص15-17

لا تنكروا ضربي له مَنْ دونه مثلاً شرودًا في النَّدى والبَاسِ

فالله قد ضرب الأقَّل لنُــوره مثلاً من المِشكاة والنِّــبراسِ[1]

ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نزله. وقد فرشت له القصور، وقربت الجياد بالمراكب الذهبية، وبعث إليه بالكسا الفاخرة، ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجي وبطانته من الصنائع، وحفظ عليه رسم سلطانه في الراكب والراجل، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة أدباً مع السلطان.[2]

وفي الحقيقة ابن الخطيب كان يعيش في بذخ وترف وأبهة في أيام عزه في الأندلس، وذلك يناسب مكانته ومركزه في الدولة، وكان يعيش في قصره في الحمراء، وأحياناً بقصره الفخم الذي أنشأه في بقعة الحدائق والجنات المسماه (بعين الدمع) بجوار غرناطة، والتى اشتهرت بجمالها وروعتها وكانت يومئذ مسكن الكبراء والسادة.[3]

أما في المغرب فعاش ابن الخطيب حيناً في كنف سلطان المغرب، وهو يقول لنا في ترجمته مشيراً إلى ذلك " وبالغ ملكه في برى، منزلا رحباً وعيشاً خفضاً، وإقطاعاً جما، وجراية ماوراءها مرمى، وجعلني بمجلسه صدرا، ثم أسعف قصدي في تهيؤ الخلوة بمدينة سلا[4]، منوه الصكوك، مهنأ القرار". واستقر ابن الخطيب في ثغر سلا المشرق الجميل، زهاء عامين، وهو يدون لنا في كتابه (**نفاضة الجراب في علالة الإغتراب**) كثيراً من

---

[1] الحسن بن رشيق القيراني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر آدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط2، مصر، 1955، ص192

[2] ابن الخطيب، نفح الطيب، المصدر السابق، ج5، ص96

[3] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص25

[4] سلا : بلفظ الفعل الماضي من سلا يسلُو : مدينة بأقصى المغرب ليس بعدها معمور إلا مدينة صغيرة يقال لها غرنيطوف ثم يأخذ البحر ذات الشمال وذات الجنوب وهو البحر المحيط فيما يزعمون ، وسلا مدينة متوسطة في الصغر والكبر موضوعة على زاوية من الأرض قد حاذاها البحر والنهر ، فالبحر شماليها والنهر غربيها جارٍ من الجنوب وفيه نهر كبير تجري فيه السفن أقرب منه إلى البحر ، وفي غربي هذا النهر اختط عبد المؤمن مدينةً وسماها المهدية.(ياقوت الحموي ، المصدر السابق، ج3، ص231)

حوادث حياته بسلا، ويشيد بطيب إقامته في تلك المدينة الصغيرة الساحرة، وقد أنجز خلال هذه الحياة الهادئة عدداً من مؤلفاته، ما بين منثور ومنظوم، ومنها بعض مؤلفاته التاريخية الهامة مثل **(كتاب اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية)**، وكتاب **(رقم الحلل في نظم الدول)**، وهذا عدا ما دبجه خلالها من الرسائل السلطانية العديدة، التي أوردها لنا في نفاضة الحراب.[1]

كما زار لسان الدين عند إقامته بالمغرب قبر المعتمد بن عباد بمقبرة أغمات وأنشده أبياتا يقول في مطلعها :

قدْ زُرْتُ قَبْرَكَ عنْ طَوْعٍ بأغْماتِ رأيْتُ ذلِكَ منْ أوْلَى المُهِمّاتِ

لِمْ لا أزُورُكَ يا أنْدَى المُلوكِ يَداً ويا سِراجَ اللّيالي المُدْلَهِمّاتِ[2]

وبقي سلطان الأندلس المخلوع محمد بن الأحمر (الغنى بالله) في فاس يترقب الحوادث في الأندلس ويتطلع لاسترجاع ملكه، وكان يسعى لتحقيق هذا الهدف بمساعدة بيدرو الثاني (بطره) ملك قشتالة. تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما، ولكن ملك قشتالة لم يسعفه في مشروعه، وآثر أن يعقد الصلح مع سلطان غرناطة الحديد .[3]

وفي هذه الأثناء تم انقلاب في فاس ترتب عليه مصرع السلطان أبى سالم في ذي القعدة 762 هـ / 11 أكتوبر 1361م، وتقلد السلطة صاحب الإنقلاب الوزير عمر بن عبد الله الذي أعان ابن الأحمر المخلوع على أمره، ووقف إلى جانبه فى استرجاع عرشه، حتى سنحت الفرصة وواتت الظروف، وذلك باندلاع ثورة جديدة في غرناطة صرع فيها السلطان إسماعيل بن الأحمر على يد الرئيس أبي سعيد، الذي فر إلى قشتالة عقب عودة

[1] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص27

[2] المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج1، ص297 (القصيدة كاملة موجودة في الملاحق)

[3] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص27-28

الغني بالله إلى الأندلس واستيلائه على مالقة ثم دخوله غرناطة وتربعه على العرش من جديد عام 763 هـ / 1361 م – 1362م .

لقد استدعى سلطان غرناطة الجديد وزيره المنفى ابن الخطيب ليقدم إلى دار ملكه برسالة مؤرخة 14 جمادى الأخرة 763 هـ 1361م، وذلك ليتقلد منصبه السابق، فاستجاب ابن الخطيب وجاز البحر، صحبة أسرة السلطان وأسرته.[1]

ويصف لنا ابن الخطيب سيرته في الحكم بعد عودته إلى غرناطة بقوله : "فاستعنت بالله تعالى عليه، وعاهدت وجهه فيه، من غير تلبس بخديعة، ولا تشبث بولاية، مقتصراً على الكفاية، حذراً من النقد، خامل المركب، معتمداً على المنسأة، مستمتعاً بخلق النعل، راضيا بغير النبيه من الثوب، مشفقاً من موافقة الغرور، هاجراً للزخرف، صادعاً بالحق في أسواق الباطل، كافاً عن السخال برائن السباع، مفوتاً للأصول في سبيل الصدقة. ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة، بكر الحسنات بهذه الخطة، .....والصدع فوق المنابر، ضماناً من السلطان بترياق الثورة، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة، ....." [2]

هذا ما كان يختلج في نفس ابن الخطيب من طريق عزم على اتباعه وسلوك عزم على تطبيقه من رضا بشظف العيش على حد قوله والتفات بكليته إلى تدعيم أركان الدولة، وتوطيد عرش السلطان، متخذاً لهذا من الوسائل ما هو صالح ومشروع متحملاً في سبيل ذلك أمانة الوزارة، وما تفرضه من جهد جهيد، حتى لاحقه الأرق واقض مضجعه، فأظهر رغبته في إعفائه من منصبه لبعض خاصته، ورغب بينه وبين نفسه في مغادرة الأندلس، بعد أن شعر بما يحاك حوله من دسائس ومكائد وبخاصة حين رأى سلطانه قد بدأ يتأثر بسعايه الخصوم، وقد تزعم هذه الحملة ضد ابن الخطيب رجلان قويا

[1] ابن الخطيب، الإشارة إل أدب الوزارة، المصدر السابق، ص18

[2] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص30

التأثير في السلطان بحكم وضعيتهما في الخدمة السلطانية، ولما لهما من مكانه سياسية في الدولة، هذان الرجلان هما:

– الوزير الشاعر محمد بن يوسف المعروف ب (ابن زمرك)[1] تلميذ ابن الخطيب ومعاونه في الوزارة و قاضي الجماعة بغرناطة أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي[2]، ولي نعمه ابن الخطيب. [3]

وكان ابن الخطيب فيما يبدو من أقواله هدفاً لحملات خصومه، ولم يكن فيما يبدو متمتعاً بحب الكافة أو الدهماء. والظاهر أنه كان قد برم يومئذ بالخدمة السلطانية، وسئم متاعبها ومسئولياتها الفادحة، ومظاهرها البراقة، وساورته رغبة في الزهد و الإعتكاف، وجالت بخاطرة رغبة السفر لقضاء فريضة الحج، وقد التمس ابن الخطيب بالفعل إلى سلطانه أن يحقق رغبته في ذلك، هذا إلى أن ابن الخطيب لم يكن بالرغم من حياته المترفة الناعمة لم يكن يتمتع بصحة طيبة، تدل على ذلك إشاراته في مقدمة الإحاطة إلى سوء حالته الصحية كما يدل على ذلك ماذكره من إصابته بالأرق المزمن، فلم يكن ينام من الليل سوى اليسير. وقد سجل ابن الخطيب ذلك في إحدى رسائله الطبية المسماة: **(الوصول إلى حفظ الصحة في الفصول)**، وأبدى عجبه من أنه وهو طبيب يدون لغيره وسائل العلاج، لم يستطع معالجة نفسه من هذا الداء.

---

[1] أبي عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف بن محمد الصريحي الفريضي المعروف بابن زمرك، أصله من شرقي الأندلس، ولد في 14شوال 733هـ/جوان 1333م، وهو أحد تلامذة ابن الخطيب، تدرج في المناصب السياسية ، وساهم في فتنة ومقتل شيخه لسان الدين، توفي بعد 795هـ مقتولا.(محمد بن يوسف الصريحي، ديوان ابن زمرك الأندلسي، تحقيق محمد توفيق النّيفر،دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1997، ص5

[2] أبو الحسن على بن عبد الله بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي المالق النباهي، ولد بمدينة مالقة في سنة 713هـ ؛ وبها درس على شيوخ مقصودين، ثم رحل إلى غرناطة لاستكمال ثقافته الأدبية والفقهية. وبعدها غادر العاصمة النصرية حين ولى القضاء بمدينتين صغيرتين: مُلتمَاس وبَلّش، وعاد إليها أخيراً للاستقرار بها نهائيا، كان على رأس أعداء ابن الخطيب وأفتى بإحراق كتبه، وذكر صاحب نيل الإبتهاج أنه لم يُعثر على تاريخ وفاته.(أبو الحسن الناهي، تاريخ قضاة الأندلس، المصدر السابق، ص2)

[3] ابن الخطيب، الإشارة إل أدب الوزارة، المصدر السابق، ص19

ويصف لنا بن خلدون هذه المرحلة من حياة ابن الخطيب فيما يلى :" وخلا لابن الخطيب الجو، وغلب على هوى السلطان، ودفع إليه تدبير المملكة و خلط بنيه بندمائه وأهل خلوته، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه، وعلقت عليه الآمال، وغشى بابه الخاصة والكافة، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته، فتواقفوا على السعاية فيه ". و ما تدلي به هذه العبارات الموجزة القوية هو أن ابن الخطيب كان في هذه المرحلة من حياته الوزارية يتمتع بالسلطان المطلق. والواقع أن ابن الخطيب كان عندئذ حاكماً بأمره، وكان استئثاره بالسلطان والنفوذ على هذا النحو يذكي سخط منافسيه، ويثير من حوله ضراماً من البغض والحسد، وكان السلطان ثقة منه بوزيره الأكبر، وبمقدرته وكفايته، يترك له زمام الأمور، ويعرض عن الإصغاء لأعدائه ومنافسيه، ولكنه بدأ في النهاية يتأثر بسعايتهم، ويرى في استبداد ابن الخطيب اعتداء على سلطانه. وشعر ابن الخطيب من جانبه، بأن سلطانه قد بدأ يتغير عليه، وأخذ يتوجس شراً من العواقب.[1]

ولقد شعر ابن الخطيب بعيون المقربين إليه ترمقه بحقد دفين، وبُغض كمين، وهذا ما نلمسه من كلامه حينما يصف لنا هذه الفترة الحرجة من حياته، إذ يقول : "وصرت أنظر إلى الوجوه، فألمح الشر في نظراتها، وأعتبر الكلمات، فأتبين الحسائف في لغاتها، والصبغة في كل يوم تستحكم، والشَّرُ يتضاعف، ونعمة الولد تطلق لسان الحسود وشبع الكلاب المطيعة في تهيج حسائف النمور الجائعة والأسود والأصحاب الذين تجمعهم المائدة كل يوم وليلة يفتنون في الإطراء والمديح، وتحسين القبيح والمحالات في الغي، والتقرب بالسعي، أنظر إليهم يتناقلون الإشارات بالعيون و المغامزة بالجفون والمخاطبة

[1] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص31

باللغوز، فإذا انصرفوا صرف الله قلوبهم، فقلبوا الأمور، ونقلوا العيوب، وأفسدوا القلوب، وتعللوا بالأحلام، وقواطع الأحكام".[1]

وبلغت الأمور ذروتها في أوائل سنة 773هـ، وشعر ابن الخطيب بأن السعاية قد أثمرت، وأنه فقد عطف مليكه، وأن الخطر محدق به. والظاهر أنه كان قبل ذلك بقليل، يتصل سراً بالسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن المريني ملك المغرب.[2]ولما اطمأن إلى وعود السلطان بالحماية ترك الأندلس.[3]

و كانت لابن الخطيب على سلطان المغرب يد سببها مساعدتـه في الإيقاع بعبد الرحمان المريني ووزيره بن ماساي وكانا قد لجآ لغرناطة، فلما أحس ابن الخطيب بتغير الغني بالله عليه[4]، استأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية، وسار إليها في لمة من فرسانه، فلما حاذى (جبل الفتح)، اضطر إلى اجتياز العدوة، فخرج قائد الخيل لتلقيه، وأجازه إلى (سبتة) فارا يقصد السلطان، عام ثلاث وسبعين وسبعمائة من الهجرة، بمقامه من (تلمسان) فاهتزت له الدولة، وأركب السلطان خاصته لتلقيه، وأرسل يطلب أهل ابن الخطيب وولده فجاءوا على أكرم حال.[5]

ولكنه قبل أن يغادر جبل طارق، بعث إلى سلطانه الغنى بالله رسالة مؤثرة يودعه فيها، ويوضح أسباب تصرفه، ويطلب إليه المغفرة، ويؤكد له بقاءه على الود، ويلتمس رعايته لأسرته وولده، وتبدأ الرسالة بهذه الأبيات:

بانوا فَمَنْ كان باكياً يبكِى هَذِي ركابُ السرى بلا شَكِّ

[1]محمد عيساوة، الوشاية وأثرها في نكبة رجال الفكر بالأندلس-نكبتي ابن رشد وابن الخطيب نموذجا-، المجلة التاريخية الجزائرية،2021 ، المجلد5، العدد2، ص392

[2]ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص32

[3]إبن قنفد القسنطيني، كتاب الوفيات، تح: عادل نونهيض، دار الآفاق الجديدة، ط4، بيروت، 1983، ص371

[4]ابن الخطيب، جيش التوشيح، المصدر السابق، ص2

[5]ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، المصدر السابق، ص24

فمنْ ظُهور الرِّكاب مُعملة إلى بُطون الرّبي إلى الفلكِ

تَصدعُ الشَّمل مثلمَا انْحَدَرت إلى صُبوبِ جواهر السِّلكَ

مِن النَّوى قَبل لم أزل حَذِرًا هذى النَّوى جل مَالِك المُلكِ [1]

كما أورد في هذه الرسالة وصيته إلى سلطانه فيقول: "وأنا قد رحلت فلا أوصيكم بمال، فهو عندي أهون متروك، ولا بولد فهم رجالكم وخدامكم، وممن يخرص مثلكم على الإستكثار منهم، ولا بعيال، فهي من مربيات بيتكم وخواص داركم، إنّما أوصيكم بحظي العزيز – كان – علي بوطنكم وهو أنتم فأنا أوصيكم بكم، فارعوني فيكم خاصة، أوصيكم بتقوى الله، والعمل لغد، وقبض عنان اللهو في موطن الجد والحياء من الله الذي محص وأقال، وأعاد النعمة بعد زوالها (فينظر كيف تعملون)[2]. وأطلب منكم عوض ما وفرته عليكم من زاد طريق، ومكافأة وإعانة زاداً سهلاً عليكم، وهو أن تقولوا لي : غفر الله لك ما ضيعت من حقي خطأ أو عمداً؛ وإذا فعلتم ذلك فقد رضيت "[3]

[1] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص33

[2] سورة الأعراف ، الآية 129

[3] عبد الرحمان ابن خلدون بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004، ص132

المبحث الثاني : المؤامرة والإغتيال

كان من المتوقع أن يهدأ ابن الخطيب بمقامه بالمغرب، فالسلطان قد أحله مكانته اللائقة به وأبدله مما فقد الشيء الكثير، ولكن – للأسف – اتخذ منافسوه من هربه – على هذه الصورة – مادة دسمة للكيد، وأكدوا للسلطان أدانته، وعدم وفائه لولي نعمته، وزاد الإتهام تأكيداً أن ابن الخطيب كان حريصاً على أن يحمل معه أمواله وذخائره إلى المغرب، وفي هذا يقول له القاضي النباهي غريمه ضمن الرسالة التي بعث بها إليه "فهمزتم ولمزتم وجمعتم من المال ما جمعتم . ثم هربتم بأثقالكم" [1]

وكانت الرسالة التي أرسلها القاضي أبو الحسن إلى ابن الخطيب بالمغرب رسالة شديدة اللهجة، كانت أشبه بدعوى إتهام، حيث يجمل فيها أبو الحسن أخطاء ابن الخطيب وهنّاته، وما يسند إليه من تهم الإلحاد والزندقة وبالرغم من أن هذه الرسالة تحمل طابع التحامل والضغن الشخصي، فإنها تلقى ضوءاً كبيراً، على ما كان يرمى به ابن الخطيب، خلال توليه الحكم، وعلى بعض الوقائع التي اتخذت سندا لاتهامه، بالخروج على أحكام الإسلام، والحكم بعد ذلك بإدانته ونكبته. ويمككنا أن نقول أن القاضي أبا الحسن النباهي كان في البداية من أنصار ابن الخطيب وأوليائه، وأن ابن الخطيب هو الذى ندبه ليكون قاضياً للجماعة، واستصدر ظهير تعيينه، أيام توليه الوزارة للغنى بالله في المرة الثانية، وذلك في فاتحة عام 764 هـ، وفيه ينعته برفيع النعوت والصفات، من علم وفضل ونزاهة، ثم ندبه بعد ذلك ليكون خطيبا للمسجد الجامع. ولما وضع ابن الخطيب كتاب الإحاطة، وترجم فيه من ترجم من أكابر معاصريه، ظفر منه النباهي بأكرم النعوت والخلال، إذ وصفه بأنه" قريع بيت مجادة وجلالة، وبقية تعين وأصالة، عف النشأة، طاهر الثوب، مؤثر للوقار والحشمة، بعيد الغور، مرهف الجوانب، ناظم، ناثر، نثره يشف على نظمه، ذاكر للكثير ... بعيد المدى في باب النزاهة، ماضياً غير هيوب .... الخ"،

[1] ابن الخطيب، الإشارة إل أدب الوزارة، المصدر السابق، ص21

ثم دارت الأيام دورتها وازور نجم ابن الخطيب، وتقلص سلطانه ونفوذه، وعندئذ برز النباهي و ابن زمرك إلى جانب سلطانهما الغني بالله في طليعة خصوم ابن الخطيب.[1] وهكذا كان جزاء ابن الخطيب بعد أن أخلص تمام الإخلاص لسلطانه الغني بالله، وكابد معه أيام نفيه، وذاق بصحبته لذة السراء، ومرارة الضراء، ولما عاد هذا السلطان إلى غرناطة عاد بعده لسان الدين، واستأنف عمله في خدمته متفانياً ومخلصاً. كما كان له كل الفضل على ابن زمرك و النباهي إذ كان سندا لهما وبفضله وصلا إلى هذه المكانة.[2]

وعندما ألف ابن الخطيب في منفاه كتابه (**أعمال الأعلام**) لم يتحاش هجو صديقه القديم هجاء لا اقتصاد فيه فيقول "والشيء يذكر بالشيء. وقف عندي على هذه الحكاية الشيخ القاضي اليوم بغرناطة علي بن الحسن الملقب بجعسوس[3] ، أطروفة الدنيا وأضحوكتها شكلا وعلماً وخلقاً"[4]، ولقب الجعسوس هو لقب كان بلا شك يطلق عليه في الأوساط الثقافية الغرناطية، هزؤا بقصر قامته. وفي كتاب آخر من مؤلفاته (**الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة**)، خصص له ترجمة قاسية. ولم يقف إلى هذا الحد، بل تعداه، فألف لسان الدين رسالة خاصة في هجاء قاضي غرناطة، سماها :(**خلع الرسن في وصف القاضي ابن الحسن**)[5].

إذ يقول فيه:

جعْسوسُ زيَّنَ خطّةَ الحُكْمِ التـي شهِدَ العَفافُ لهُ بِها والخِيْرُ
فصَلَ الخصومَ وقامَ يرْكَبُ نائِماً عنْها ومدّ جَناحَهُ الطّاشورُ

---

[1] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص37

[2] فاضل فتحي محمد الي، الفتن النكبات الخاصة أثرها في الشعر الأندلسي، دار الأندلس، ط1، المملكة العربية السعودية،1996 ، ص378

[3] الجعسوس : اللئيم الخلقة والخلق، ويقال اللئيم القبيح، وكأنه اشتق من الجُعس، صفة على فُعلول فشبه الساقط المهين من الرجال، وجعسوس إذا كان قصيراً دميماً (ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب،ج6، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ص39)

[4] - ابن الخطيب, أعمال الأعلام، المصدر السابق، ص78

[5] النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، المصدر السابق، ص3

وكأنّهُ جُعَلٌ يُدَحْرِجُ جـــــــاهِداً كُرةَ الخَراءِ وبعْدَ ذاكَ يَطيرُ [1]

وتعاظم الحقد في قلب قاضي غرناطة الذي أبدأ وأعاد في التحريض على لسان الدين وإقامة الحجج والبينات على كفره وزندقته توصلا لاستحلال دمه وإزهاق روحه. فكان من النتائج الطبيعية لهذا الموقف المخزي من القاضي ابن لحسن أن يؤلف لسان الدين كتابه خلع الرسن في بيان مساوىء هذا القاضي، فحمل الكتاب سخرية جارحة وتهزيئ فاضح، فمن تشويه لخلقته إلى ذم لأخلاقه والتشكيك في كفاءته العلمية، إلى نبش عن الماضي بما فيه من أصل وفصل، إلى غير ذلك من ضروب الإهانة والتحقير.

وفى غرناطة اتهمه حاسدوه – بعد ان خلا الجو لهم – بالزندقة وأفتى النباهي بإحراق كتبه فأحرقت بمحضر من الملأ. ورجا سلطان غرناطة من سلطان المغرب تنفيذ الحكم الشرعي في ابن الخطيب فرفض ذلك.[2] وقال لهم : "هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ أما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جواري"، ثم وفر الجراية والأقطاع له ولبيته ولمن جاء من أهل الأندلس في جملته.

فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعمائة، أصبحت مجريات الأحداث تسير عكس ما يشتهي ابن الخطيب، الذي تألم كثيرا لهذه الفاجعة التي عبر عنها بقوله: "ثم دك الجبل العاصم من الطوفان، والمُمْسك للأرض عند الرجفان، فكان موت المولى المرحوم أبي فارس الذي أوينا إليه، وعولنا عليه، ووثقنا بوعده، وتمسكنا بعهده، فانخرق الحجاب، واستأسدت الذئاب، واستنسرت البغاث والذُّباب"[3]، ورجع بنو

[1] محمد مفتاح، ديوان لسان الدين بن الخطيب، مج 1، دار الثقافة، ط1، الدار البيضاء،1989 ، ص25
[2] ابن الخطيب، جيش التوشيح، المصدر السابق، ص2
[3] محمد عيساوة، المقال السابق، ص393

مرين إلى المغرب وتركوا تلمسان إلى فاس، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة، فنزل بفاس واستكثر من الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنان[1].

وكان سليمان بن داود – رديف الوزير محمد بن عثمان في الوزارة للسلطان أبي العباس المريني في مراكش – شديد العداوة لابن الخطيب (وذلك لأن لسان الدين صد السلطان ابن الأحمر عن استعمال سليمان بن داوود سفيرا عن الوزير عمر بن عبد الله محتجا بأن تلك الرياسة إنما هي لأعياض الملك من بني عبد الحق)[2]، وزعم سليمان أنه سيسلمه إلى ابن الأحمر صاحب غرناطة. واتهم ابن الخطيب بأنه ضمن رسائله عبارة لا يرضاها الدين، وشكوه إلى القاضي فقضى بقتله، ولكن عبد العزيز المريني لم يسلمه على ما ذكرناه، إذ كان يرجو أن يستفيد منه إذا ذهب يغزو في الأندلس، ونجا ابن الخطيب إلى حين.[3]

ويكتب ابن الخطيب قصيدة يشكو فيها تغير أصحابه عليه (وكان هذا في نكبته الأولى في المغرب) فيقول فيها :

تَلَوَّنَ إِخوَانِي عَلَيَّ وَقَدْ جَنَـــتْ عَلَيَّ خُطُوبٌ جَمَّةٌ ذَاتُ أَلْـــوَانِ

وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ أَنْ يَتَنَكَّـرُوا بِأَنَّ خِوَانِي كَانَ مَجْمَعَ خَوَّانِـــي

وَكَانَتْ وَقَدْ حُمَّ القَضَاءُ صَنَائِعِي عَلَيَّ بِمَا لاَ أَرْتَضِي شَرَّ أَعْوَانِي [4]

وشاء القدر أن يتوفى ناصر ابن الخطيب هذا في سنة 1372م/774هـ، وخلفه على العرش ابنه (السعيد) وكان طفلا. وانتهز الفرصة بعض زعماء بني مرين ومضوا يدبرون للموثوب بالملك الطفل والمناداة بالأمير أحمد ابن السلطان أبي سالم وذلك مع

[1] آنخل جنثالث بالانثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تر:حسين مؤنس ،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،1955 ، ص155

[2] المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج1، ص105

[3] آنخل جنثالث بالانثيا ، المرجع السابق، ص156

[4] ابن الخطيب، نفح الطيب، المصدر السابق، ج5، ص120

بلاط بنى الأحمر ورجاله، وتم لهم الأمر رغم مقاومة الوزير أبي بكر ابن غازى– صديق ابن الخطيب – وخلع الملك الطفل (السعيد) ونودى بأحمد ابن السلطان أبى سالم سلطاناً على دولة بني مرين في مراكش في أوائل سنة 1374م/776هـ. [1]

فلما استولى السلطان على البلد أقام أياماً، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض على ابن الخطيب، فقبضوا عليه، وأودعوه السجن، وطيروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر.[2]وحين بلغ خبر القبض على ان الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب، وهو أبو عبد الله ابن زمرك، فقدم على السلطان أبي العباس، وأحضر ابن الخطيب بالمَشْور في مجلس الخاصة، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في المحبة، فعظم النكير فيها، فوبخ ونكل، وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ، ثم نقل إلى محبسه، واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه، وأفتى بعض الفقهاء فيه، ودس سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلا، ومعهم زعانفة جاءوا فى لفيف الخدم، مع سفراء السلطان ابن الأحم، وقتلوه خنقا في محبسه، وأخرج شلوه من الغد، فدفن في مقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد على شافة قبره طريحا، وقد جمعت له أعواد، وأضرمت عليه نار، فاحترق شعره، واسود بَشَره، فأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته. وعجب الناس من هذه الشنعاء التي جاء بها سليمان ، واعتدوها من هناته ، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته ، والله الفعال لما يريد.[3]

وحكى غير واحد أنه رئي في المنام بعد موته ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال غفر لي بسبب بيتين وهما في الوسادة ، ففحص عنهما فاذا بورقة فيها مكتوب:

---

[1] آنخل جنثالث بالانثيا ، المرجع السابق، ص156

[2] ابن الخطيب، نفح الطيب، المصدر السابق، ج5، ص110

[3] المقري، أزهار الرياض، المصدرالسابق، ج1، ص230

يا مُصْطَفَى منْ قبْلِ نشْأةِ آدَمٍ والكوْنُ لمْ تُفْتَحْ لهُ أغْلاقُ

أيَرومُ مخْلوقٌ ثَناءَكَ بعْدَمـــا أثْنَى علَى أخْلاقِكَ الخلاّقُ [1]

ويرحم الله أبا إسحاق التلمساني صاحب الرجز في الفرائض حيث يقول :

الغَدرُ في النَّاسِ شيمةٌ سلفت قَد طَال بينَ الوَرى تصرُّفُهاَ

مَا كل من قَد مَرَتْ لهُ نِعَـم مِنكَ يَرى قَدْرهَا ويَعْرفـــهاَ

بل رُبَّما أعْقَب الجَزاَءُ بِـــهاَ مَضَرَّةُ عِزّ عَنك مَصرفـهاَ

أَمَا ترى الشَّمسَ كيف تَعْطِف بالنُّو رِ على البَدرِ وهو يَكْسفُـهاَ[2]

وكان، عفا الله عنه، أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت، فتجهش هواتفه بالشعر، يبكي نفسه، ومما قال في ذلك:

بَعُدْنا وإنْ جاوَرَتْنا البُيـــوتْ وجِئْنا بوَعْظٍ ونَحْنُ صُموتْ

وأنْفاسُنا سَكَتَتْ دَفْعَـــــةً كَجَهْرِ الصّلاةِ تَلاهُ القُنوتْ

وكُنّا عِظاماً فصِرْنا عِظاماً وكُنّا نَقوتُ فَها نحْنُ قوتْ

وكنا شموس سماء العُـــلا غربن فناحت عليها البيوت

فكمْ جَدّلَتْ ذا الحُسامِ الظُّبى وذا البَخْتِ كم خَذلَتْهُ البُخوتْ

وكمْ سِيقَ للقَبْرِ في خِرْقـــةٍ فَتىً مُلِئَتْ منْ كُساهُ التّخوتْ

فقُلْ للعِدا ذَهَبَ ابْنُ الخَطيبِ وفاتَ ومَنْ ذا الذي لا يَفوتْ

---

[1] العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط2، الرباط، 1998، ج4، ص446

[2] ابن الخطيب، نفح الطيب، المصدر السابق، ج5، ص120

فمَنْ كانَ يَفرَحُ منْكُمْ لـــــهُ فقُلْ يَفْرَحُ اليومَ منْ لا يَموتْ [1]

وهنا شأنه شأن أي مفكر وسياسي ثاقب النظر نافذ البصيرة، فهو يرى بعين الحقيقة و المستقبل مصيره في الحياة من وراء سجف الغيب، كل هذه المجريات النكراء توقعها وهو في سجنه فهو يدرك جيدا طبيعة سير السياسة في ظرفية تاريخية بعينها، فقد رأى أناس اصطفاهم وأحسن إليهم ورفعهم إلى المنازل العليا انقلبوا عليه، فكتبوا ضده وألبوا عليه الشعب والسلطان، حين اتهموه بالإلحاد والزندقة، بعد أن خلدهم في مؤلفاته، وأثنى عليهم بالخير حين كان الصفاء وارفًا.

وأدرك بن الخطيب أن مآله القتل لا محالة، فكان في سجنه دائم الشكوى والبكاء على نفسه، وقد عبر عن ذلك بهذا الشعر يشي بذلك وبالحالة النفسية التي كان عليها، وفي هذا الرثاء بدت عاطفته صادقة، فعبر فيه بوجدانية صادقة عن إحساسه العميق بحقيقة الموت ودنوّ أجله.

ومن أهم التهم التي وجهت له أنه يقر في كتابه**(روضة التعريف بالحب الشريف)** مذهب الوحدة المطلقة الذي يجر إلى القول بالحلول والإتحاد، وغير ذلك من أقاويل الزندقة والإلحاد. ويعتبر انفتاحه على الأطروحات الفلسفية وبالأساس الفكر الإغريقي الهيلينستي أحد الإتهامات التي وجهت له .[2]

كما قالوا أن كتبه التاريخية، وما اشتملت عليه من تراجم الأحياء المعاصرين، والأموات الأقربين، وما يتخللها من الطعن المر فى كثير منهم، هي من قبيل (الغيبة المحرمة). وينكر النباهي على ابن الخطيب، ما ينوه به في كتابه، من قيامه بصالح الأعمال، ويقول إن ذلك من قبيل المن المذموم، وأما اعتذار ابن الخطيب وتندمه على

[1] المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ص231

[2] روني بيراز، قراءة في كتاب روضة التعريف بالحب الشريف،ترجمة أحمد عمراني، رسالة دكتوراه، جامعة ليون، فرنسا، 1981، ص226

فراق الأندلس، فيرى النباهي أنه مناقض، وأن ما وقع من فراره، إنما هو غدر بسلطانه. وأن هذا الخروج من الأوطان، لم تكن تدعو إليه ضرورة غالبة. [1]

و يقول محقق كتاب **(روضة التعريف)** عبد القادر أحمد عطا أنه يخلو تماما من التهمة التي وجهت إلى مؤلفه بالمعنى الذي يريده القانون والعدل، لا بالمعنى الذي تريده السياسة والكسب الرخيص آنذاك. ولقد عرض المؤلف لمذاهب المحبين كما أسلفنا. وعرض من جملتها مذهب أهل الوحدة المطلقة، بل مذهب الطبيعيين، وعرض المذاهب لا يحتمل للقول باعتناق المؤلف لها والحكم عليه من أجل عرضها. وفي حديثه عن جدرة الحلول والإتحاد يقول: "وهما من مقالات النصارى ... وهو باطل". ثم ساق الأدلة على بطلانها عقلا ونقلا، ثم قال: "وما يلزم ذلك من غلاة الصوفية فهو بوهم هذا الباب وليس به... ".[2]

[1] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص36-38

[2] ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، المصدر السابق، ص33-34

المبحث الثالث: ثناء العلماء عليه

أثنى العديد من المؤرخين والعلماء العرب والعجم على لسان الدين بن الخطيب وأبدعوا في وصف خصاله وذكر مواهبه، وسنأتي على ذكر بعض ما قاله هؤلاء في حق هذا العالم الفذ الذي ذاع صيته في العديد من الأمصار :

يصف لنا الأمير أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر معاصر ابن الخطيب، خلاله ومواهبه، في كتابه نثير فرائد الجمان فيمن يضمنى وإياهم الزمان ، في تلك العبارات الرنانة :" و هو شاعر الدنيا، وعلم المفرد والثنيا، وكاتب الأرض، إلى يوم العرض لا يدافع مدحه في الكتب، ولا يجنح فيه إلى العتب.... وهو نفيس العدوتين، ورئيس الدولتين، بالإطلاع على العلوم العقلية، والإمتاع بالفهوم النقلية ... ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته في الهجاء، و إلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق ويجمل". وقال عنه أيضا :" الحاجب القائد الخطيب الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلا محمد ابن الخطيب السلماني".

ويصف ابن خلدون في مقدمته ابن الخطيب بأنه "شاعر الأندلس والمغرب في عصره، وأنه كان في اللسان ملكة لا تدرك". ويقول في وصف نثره وشعره "و امتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه. وبلغ في الشعر والترسل، حيث لا يجارى فيهما، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر، وملأ الدولة بمدائحه، وانتشرت في الآفاق قدماه" ... ثم يقول عن رسائله السلطانية : "وصدرت عنه غرائب من الترسل فى مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة". ثم يجمل وصفه في (التعريف) بقوله : "وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله فى النظم والنثر، والمعارف والأدب، لا يساجل مداه، ولا يهتدى فيها مثل هداه".[1]

[1] ابن الخطيب، لإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص39-51

وقال الشهاب في نفح الطيب أن كتب ابن الخطيب الآن بالمغرب هي قبلة أرباب الإنشاء التي إليها يصلون وسوق دررهم النفيسة التي يزينون بها صدور طروسهم ويحلون.

ووقف قاضي القضاة البرهان الباعوني على بعض مؤلفات لسان الدين وكان من المعجبين بسحر بلاغته فكتب ما لفظه:" وقفت على هذا الكتاب من أوله الى آخره وعمت من بحر بلاغته في زاخره وعددته من مناقب مؤلفه ومفاخره فانه برز فيه غاية التبريز وأتى بما هو أحسن من الذهب الإبريز لا بل بما هو أبهى من الجواهر والنجوم الزواهر، وعجبت من تلك الألفاظ المشبهة السحر الالحاظ ورقة المعاني المحكمة المباني".

وقال الأستاذ محمد كرد على أن ابن الخطيب ما كتب كتابا إلا عن فكر وروية وناهيك بما يصدر عن ابن الخطيب حسنة الأندلس ونابغة عصره، بل كثير من العصور وبعده، ومحاسن لسان الدين في خصوص مؤلفاته أعظم من أن يأتي عليها الوصف أو يعمل في حقها أداة القصر، فإن كتبه لا تذكر في أخباره إلا مقرونة بألفاظ الثناء مشيعة بأداة التعجب من تلك الموهبة الإنشائية والقدرة البيانية، ولم تزل آثاره محل إعجاب وتقدير من عصره إلى الآن لا عند أمته العربية فحسب بل كتب ابن الخطيب إرث عالمي يرغب فيه كل من يتعشق الكمال، ولذلك لم يعدم ابن الخطيب في كتاب الإستشراق أفرادا درسوا كتبه و تناولوها بالشرح والتعليق وقدموها إلى عالم النشر ليشهد العالم الأدبي أي ثروة أدبية كانت تفيض بها الذهنية الخطيبية وأي كنز اشتملت عليه المكتبة العربية.[1]

لما ترجم الإمام أبو العباس ابن قنفذ الشهير بابن الخطيب القسنطيني لشيخه لسان الدين في وفياته قال :"وسمعت جملة من تواليفه بقراءته هو في مجالس مختلفة، فابن الخطيب كان من الثقة بنفسه وبقيمة مؤلفاته العلمية بالمنزلة التي أقامت منه مدرسا لكتبه

[1] التيطواني، المرجع السابق، ج1، ص67

ولا أظن ذلك إلا في فاس مأوى العلم والعلماء" وكان يرسل كتبه إلى الأئمة والعلماء والأدباء في مختلف الأقطار الإسلامية وهذا دليل على أنه كان يسعى لتعميم النفع بتآليفه جهد الإمكان.[1]

وقال عنه أبو العباس التنبكتي "الإمام الأوحد الفذ صاحب الفنون المنوعة والتآليف العجيبة". وقال فيه ابن القاضي: "الأديب البارع الكاتب ذو التصانيف المنبقة" .

وقال عنه فروخ : "كان لسان الدين بن الخطيب بارعاً في الفلسفة والسياسة والطب، أما في التاريخ فكان مؤرخ عصره بلا منازع وهو أديب، ناشر مترسل وشاعر مقتدر"[2].

ووصفه المقري بعدة أوصاف وأثنى عليه حتى قرن إسم الكتاب به فسماه "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب". وقال فيه :

تَصَانِيفُ الوَزِيرِ ابْنِ الخَطِيبِ أَلَذُّ مِنَ الصِّبَا الغَضِّ الرَّطِيبِ

فَأَيَّةُ رَاحَةٍ وَنَعِيمِ عَيْشٍ تُوَازِي كُتْبَهُ أَمْ أَيُّ طِيبِ

وقال غيره:

ومَا زمنُ الشَّبابِ وأنت تَجْرِي مع الأَحْبابِ فِي لهوٍ وطِيب

ووصْل من حَبيبٍ بعد هَجْرٍ بأَحْلا من كَلام ابن الخَطِيب[3]

وذكر الشيخ محمد القصباني أن ابن الأحمر وجهه رسولا إلى ملك الإفرنج فلما أراد الرجوع أخرج له ملك الإفرنج كتابا من ابن الخطيب بخطه يشتمل على نظم ونثر في

[1] التيطواني، المرجع السابق، ج1، ص65

[2] ساجد مخلف حسن، لسان الدين بن الخطيب حياته ومنهجه في كتابة نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، قسم التاريخ، كلية التربية، جامعة سامراء، العراق، 2013، ص247

[3] العباس بن إبراهيم السملالي، المرجع السابق، ج4، ص446

غاية الحسن والبلاغة فأقرأه إياه فلما فرغ من قراءته قال له مثل هذا يقتل وبكى حتى بل لحيته وثيابه.[1] فانظر – سددك الله تعالى. بكاء العدو الكافر على هذا العلامة، وقتل إخوانه في الإسلام له على حظ نفساني، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا رب غيره[2]

ويقول عنه عصام الدين الفقي :"كان ابن الخطيب من أعظم كتاب عصره، كان شاعرا فذا وأديبا كبيرا ، ويكتب الشعر في موضوعات متنوعة تناسب حياته المليئة بالأحداث والمحن" ويقول أيضا :"كان دائرة معارف، وعالما ومفكرا موسوعيا، صنف في مختلف أنواع المعرفة، كتب في الأدب والشعر والفقه والتاريخ والتراجم والفلسفة والطب، وترجم لحياته في خاتمة كتاب الاحاطة، وهذه المؤلفات العديدة وهذا الإنتاج العلمي الغزير يتجلى فيه عمق التفكير، وقوة البيان وسعة الاطلاع"[3]

ويقول فاضل محمد والي :"ولسان الدين بن الخطيب كان واسع الثقافة ملماً بكثير من الفنون، يتميز بالقدرة على التعبير عما يريد، وأجاد علوم الفلسفة والطب، والتاريخ. ومن الناحية الأدبية لا يختلف اثنان على أنه كان أديباً ناثراً شاعراً مكثراً في الناحيتين، صاحب أسلوب قوي، ويعد من الوشاحين في عصره، حيث أجاد فنّ الموشحات وأنتج منها الكثير"[4]

ويقول ناصر الدين سعيدوني :"كان مقتل لسان الدين الخطيب مؤشراً على قرب نهاية عصر الإبداع في الثقافة الأندلسية والمغربية، فقد انطفأت مع انقطاع أنفاسه شمعة مضيئة في مجال المعرفة الإسلامية، واختفت شخصية قلما جاد بها الزمان، فقد كان

[1] محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج2، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،1348هـ ، ص193

[2] ابن الخطيب، نفح الطيب، المصدر السابق، ج5، ص112

[3] عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، 1984، ص310

[4] فاضل محمد والي، المرجع السابق، ص376

علماً بارزاً في الإرادة وعلم السياسة وأديباً فذا في نظم الشعر وصياغة النشر، ومؤرخاً محققاً جمع دقة المعرفة وفخامة الأسلوب وموسوعية الرؤية فاستحق بجدارة لقب ذي الوزارتين لجمعه القلم والسياسة"[1]

ويقول عبد الله عنان :" كان ابن الخطيب قطب الشعر والنثر في عصره، وكان محور الحركة الفكرية الأندلسية كلها، في أواسط القرن الثامن الهجري، تجتمع إليه وتلتف حوله" ويقول أيضا: "يجب أن نلاحظ أن عبقرية ابن الخطيب الأدبية، قد طبعت هذه المرحلة كلها، من تاريخ الحركة الفكرية الأندلسية، بطابعها القوى، وبعثت إليها كثيراً من أسباب القوة والروعة، حتى ليسوغ لنا أن نقول إن مدرسة ابن الخطيب الأدبية، امتدت منذ عصره إلى أواخر القرن الثامن، وأوائل القرن التاسع الهجري"

ومما كتبه الفقيه أبا جعفر بن عبد الملك العذرى لابن الخطيب في بعض الشئون :

إنِّي بمَجدِكَ لم أَزل مُستيقـناً أنْ لا يهدم بالتَّغْير مَا بَنَـــــى

إذْ أَنْت أَعْظَم ماجد يعزى لـه صنع وأَكْرَم من عَفَا عَمَّن جَنَى

وكتب له أيضاً:

إنْ كَانَ دهر قَدْ أَسَاء وجارا فَذِمام مَجْدِكَ لا يضِيع جَارا

فلأَنْتَ أعْظَم مَلْجَأ يُنْجى إذا ما الدَّهْرُ أنجد موعداً وأغَارا[2]

ويشترك النقد الغربي الحديث في التنويه بمنزلة ابن الخطيب العلمية والأدبية. ويبدى المستشرقون الإسبان بالأخص إجلالهم لمواهبه وخلاله، وإعجابهم بتفكيره وتراثه،

[1] ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1999، ص169

[2] محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مطبعة المدني، ط4، القاهرة، 1997، ج4، ص481

ويرون فيما خلفه من تاريخ غرناطة، وجغرافيتها، وأوصاف حياتها الاجتماعية، أنفس ما انتهى إلينا في ذلك من تراث الكتاب المسلمين.

قال المستشرق مورينو نييتو Moreno Nieto ، في وصف ابن الخطيب وتراثه ما يأتي :"و لا يوجد فى تاريخ غرناطة الأدبى، ما يمكن أن يقارن هذا الكاتب الخصب، فقد كانت معارفه العلمية عظيمة، وقلما حظى أسلوب كاتب مثله. بما حظى به أسلوبه، من البلاغة والرشاقة، حسبما يقول ابن خلدون، وقد برع بالأخص في علم السياسة وفى التاريخ، وقد شهد حوادث سياسية، لعب فيها دوراً كبيراً، وكان مدى أعوام طويلة، أميناً ومستشاراً لملك قابل خدماته بجحود مطبق.[1]

ويصف العلامة المستشرق سيمونيت Simonet ، ابن الخطيب "بأمير الأدب الأندلسي الغرناطي"، ويقول لنا إن شهرته وصلت إلى بلاط قشتالة، وإنه يعرف في تواريخها بابن خطين Benhatin ، ويوصف بأنه "عالم كبير وفيلسوف ومستشار لملك غرناطة" ثم يقول "إن ابن الخطيب قد ترك لنا آثاراً كثيرة ، في النثر والشعر والتاريخ والجغرافيا والرحلات ، والبلاغة والشريعة ، والعلوم ، والأخلاق ، والدين ، والنبات والطب والبيطرة، والموسيقى، والفن الحربي، والسياسة، وكلها غنية في الإبتكار والتعمق والرشاقة".[2]

ويخصص العلامة المستشرق كونثالث بالنسيا G. Palencia لابن الخطيب في كتابه (تاريخ الأدب العربي الإسباني) ترجمة حسنة يبدؤها بقوله : "إن تاريخ القرن الرابع عشر يبلغ الذروة باسمين عظيمين، هما ابن الخطيب المؤرخ الأنيق، والسياسي والأديب، و ابن خلدون منشئ فلسفة التاريخ. ثم يقول "إن سائر الكتاب (في هذا القرن) تكسف ضوءهم، شخصية لسان الدين بن الخطيب العظيمة، وابن لوشة. وقد تعلم في غرناطة،

[1] إبن الخطيب، الإحاطة، المصدر السابق، ج1، ص50

[2] نفسه، ص51

وأبدى شغفاً كبيراً بالعلوم الطبية والفلسفية، التي تلقاها عن الطبيب الشهير يحيى بن هذيل، وقد برع في الشعر و تربع فوق دست الآداب العربية.[1]

ويقول أيضا :"والمعلومات التاريخية التي يوردها ابن الخطيب في كتبه صحيحة دقيقة في الغالب، وهى مرجعنا الأوثق في معرفة تاريخ مملكة غرناطة، ويكاد يكون آخر كاتب عظيم أنجبه الأندلس الإسلامي".[2]

[1] إبن الخطيب، الإحاطة، المصدر السابق، ج1، ص51

[2] آنخل جنثالث بالانثيا ، المرجع السابق، ص259

خاتمة

من خلال دراستي لموضوع "**ابن الخطيب في غرناطة من منحة التمكين إلى جناية الإغتيال**" تمكنت من الوصول إلى مجموعة من الإستنتاجات سأقوم بترتيبها حسب فصول الموضوع، وهي كالتالي:

ولد لسان الدين بن الخطيب في بيت علم ودين وخير وجاه، فقد عُرف بيتهم ببني الوزير ثم بني الخطيب، وهذا يبرر تلك الخصال الحميدة الموجودة فيه. وكان لأسرته صلات بالبيوت الشهيرة في غرناطة، فتأثر منذ صغره بهذا الأفق السلطاني الذي عاش فيه وسلك نهج آبائه من قبله.

كان للمكان والزمان الذي عاش فيه ابن الخطيب أثر كبير في ثقافته وعلمه ومهاراته، فقد عرفت الأندلس بأنها دولة مبنية على العلم، انتشرت فيها الحلقات العلمية والفكرية، وخاصة غرناطة التي اجتمع فيها الكثير من العلماء، وذلك بسبب الأوضاع السياسية التي شهدتها المدن الأخرى. فكان في غرناطة السلطان والوزير والفنان كلهم علماء، فساهمت هذه البيئة في تكوين شخصية ابن الخطيب.

كان لِزاما على ابن الخطيب أن يكون ملماً بعلوم متعددة ليكون متميزا. وهنا يظهر دور أسرته التي قامت بتعليمه على أيدي خِيرة العلماء في عصره، فتعلم القرآن وعلومه واللغة العربية والشعر والطب والفلسفة، وهذا العلم الأخير كان مُحتكَراً من طرف الطبقة الرفيعة فقط من سلاطين ووزراء وعلماء، وذلك خوفا على العامة من إنغماسهم فيه وخروجهم عن جادة الصواب.

كل هذه الظروف والصفات التي اجتمعت فيه وتفرقت في غيره أدت إلى وصوله إلى منصبه الأول ومنه دخل عالم السياسة، وهو أمين السر لرئيس ديوان الإنشاء أبي الحسن بن الجياب، ثم أُرسل سفيرا وبعدها عُيِّن وزيرا، بعد أن أظهر براعة وكفاءة كبيرة

وصدرت عنه رسائل سلطانية رائعة نعتها ابن خلدون بالغرائب. وبالموازاة مع هذه الوظيفة نهارا كان يُشغل قلمة بالكتابة والتأليف ليلا وذلك بسبب داء الأرق الذي أصابه، فألف العديد من الكتب أغلبها في الأدب والتاريخ. ويمكننا القول أيضا أنه أثَّر بشكل كبير في تأخير سقوط غرناطة بفضل سياسته الحكيمة.

وبسبب الإنقلاب الذي حدث في غرناطة نفي مع سلطانه الغني الله إلى المغرب وفقد زوجته هناك. هذه النكبة كانت المنعرج الذي غير حياة لسان الدين وتفكيره، فأصبح يفضل العزلة ويُعرض عن الدنيا، و بعد عودته إلى غرناطة غير سياسته وأصبح يتحرز في كل أفعاله.

وكما هو الحال في عالم السياسة إذا كثرت المناصب وزادت الثقة برجل ما يكثر حوله الحساد والمُبْغِضون، فكان في طليعة أعداء ابن الخطيب تلميذه ابن زمرك، وكذلك النباهي وهو أحد قضاة غرناطة، وهذا الأخير تولى منصبه بفضل توصية ابن الخطيب. وبقيا يشيان به إلى السلطان حتى امتلأت نفسه، فلما أحس ابن الخطيب بتغير سلطانه عليه فرَّ إلى المغرب.

تكالب أعداء ابن الخطيب وزاد عددهم، وبعد محاولات عديدة قوبلت بالرد من سلطان المغرب، توفرت الظروف ووجدوا من يعينهم في تحقيق هدفهم في المغرب وهو سليمان بن داود مع سلطانه الجديد أبو العباس أحمد بن سالم، فأحضروه في مجلس الخاصة واتهموه بالزندقة والإلحاد وسجنوه وأفتى الفقهاء بقتله. وهذا مما يحسب ضد فقهاء المالكية.

ولم يهدأ بال أعدائه حتى قام سليمان بن داوود وابن زمرك بدس بعض الأوغاد من حاشيتهم، فدخلوا السجن ليلا وقتلوه ثم دفن، ثم أخرجوه من قبره وأحرقوه، ليدفن مرة

أخرى. وبهذا فقدت الأندلس عزيزا كان قد أنار طريقها وقوَّم سياستها الداخلية والخارجية مدّة من الزمن.

وبالرغم مما قدمه ابن الخطيب إلى غرناطة وإلى سلطانه من سياسة حكيمة ورأي صائب وحسن تدبير إلا أنه قوبل بالعقوق من تلامذته ومن أحسن إليهم.

ساهم ابن الخطيب في إثراء الحياة الفكرية والعلمية بالأندلس من خلال مؤلفات عديدة، كما كان له الفضل في حفظ وتدوين تاريخ الأندلس في عهد بني الأحمر وحتى من كان قبلهم، فكانت تآليفه مادة خصبة لدارس التاريخ.

طال الإجرام البشري مؤلفات ابن الخطيب أيضا، فقد أحرقت كتبه في غرناطة بعد إفتاء النباهي بذلك، لكن ذكاءه وتواضعه ساهم في حفظ أغلبها، فلقد كان يرسل نسخا من كتبه بعد الإنتهاء منها إلى العلماء والأدباء في مختلف المدن والأمصار ويطلب منهم الإنتفاع بها وتصحيح الخطأ فيها، فلم يكن متكبرا متعاليا وهذا من حميد خصاله.

ساهمت رحلاته بين غرناطة والمغرب ومؤلفاته في وصف المدن والمفاضلة بينها في تصوير الحياة الإجتماعية و الإقتصادية و الحضارية للمناطق التي مرَّ بها، كما اتسمت مؤلفاته في التراجم بالصدق والموضوعية والدقة في الوصف.

كانت مؤلفاته في الأدب من الجواهر التي أعطت إضافة رائعة للمكتبة الأدبية الإسلامية، فموشحاته وأشعاره حفظها السلاطين والأدباء وتغنى بها العامَّة من الناس.

شهد العدو قبل الصديق لإن الخطيب بالحنكة السياسية والمكانة العلمية والفضل الكبير، وأنكروا على أعدائه وقتلته فعلتهم، وحفظ التاريخ اسمه ولازال الأدباء والمؤرخون يلهجون بإسمه ويجعلون من حياته وإسهامه العلمي موضوع دراستهم واهتماماتهم العلمية في شتى بقاع العالم.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

01- القرآن الكريم، رواية ورش

02- ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف بن محمد، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1967

03- المقري التلمساني شهاب الدين أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة الجنة، القاهرة، 1939, ج1

04- المقري التلمساني شهاب الدين أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، ج5

05- النباهي أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن، تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق لجنة التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، ط5، بيروت، لبنان، 1983

06- الحموي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1995، ج3

07- الحميري محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، 1984

08- السخاوي شمس الدين محمد ن عبد الله، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ، تحقيق سالم بن غتر بن سالم الظفيري، دار الصميعي، ط1، المملكة العربية السعودية، 2017

09- ابن العماد شهاب الدين عبد الحي أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 1986، ج1

10- القلقشندي أبي العباس أحمد، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، القاهرة،1922، ج1

11- التنبكتي أحمد بابا، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، دار الكاتب، ط2، طرابلس، ليبيا، 2000

12- ابن الخطيب لسان الدين، أوصاف الناس في التواريخ والصلات تليها الزواجر والعظات، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، 1977

13- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط2، بيروت، لبنان، 1956

14- ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1973، ج1،ج4

15- ابن الخطيب لسان الدين، الإشارة إلى أدب الوزارة، تحقيق محمد كمل شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، القاهرة، 2004

16- ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة،،بيروت، 1983

17- ابن الخطيب لسان الدين، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تصحيح محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1347هـ

18- ابن الخطيب لسان الدين، جيش التوشيح، تحقيق هلال ناجي ومحمد ماضور، مطبعة المنار تونس

19- ابن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني، تحقيق محمد مفتاح، دار الثقافة، ط1، الدار البيضاء، 1989، ج1.

20- ابن الخطيب لسان الدين، كناسة الدكان بعد انتقال السكان حول العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب في القرن الثامن هجري، تحقيق محمد كمال شبانة وحسن محمود، دار الكتاب العربي، مصر،1966

21- ابن الخطيب، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2002

22- ابن الخطيب لسان الدين، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، نشر أحمد متار العبادي , مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985

23- ابن الخطيب لسان الدين، روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق عبد القادر أحمد عطا عبد الستار، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر

24- ابن الخطيب لسان الدين، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان، المطبعة العربية الحديثة، ط1، القاهرة، 1980، ج1

25- ابن زمرك محمد بن يوسف الصريحي، ديوان ابن زمرك الأندلسي، تحقيق محمد توفيق النّيفر، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1997

26- ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، 1414هـ، ج6

27- إبن قنفد القسنطيني أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب، كتاب الوفيات، تحقيق عادل نونهيض، دار الآفاق الجديدة، ط4، بيروت،1983

28- ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004

المراجع:

29- الوراكلي حسن، لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين، مجلة كلية الآداب بتيطوان، المغرب، 1987

30- الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، لبنان، 2002، ج5،ج7

31- المكناسي أحمد بن القاضي، جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1973

32- المقدسي أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، منشورات الدائرة العربية، بيروت، 1935، ج1

33- المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تصحيح محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الإستقامة، ط1، القاهرة، 1949

34- الحفناوي أبي القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1907

35- الطيبي أمين توفيق، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، تونس، 1997، ج2

36- السملالي العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ،ط2، الرباط، 1998، ج4

37- الفاخوري حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، ط1، بيروت، لبنان، 1986

38- الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، 1984

39- القيراني الحسن بن رشيق الأزدي، العمدة في محاسن الشعر آدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط2، مصر، 1955

40- الركابي جودت، في الأدب الأندلسي، دار المعارف، ط2، مصر،1966

41- التطواني محمد بن أبي بكر، ابن الخطيب من خلال كتبه، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1954

42- آنخل جنثالث بالانثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955

43- والي فاضل فتحي محمد، الفتن النكبات الخاصة أثرها في الشعر الأندلسي، دار الأندلس، ط1، المملكة العربية السعودية، 1996

44- ليفي بروفنسال، الاسلام في المغرب الأندلس، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990

45- حتامله محمد عبده، الاندلس التاريخ و الحضارة والمحنة، مطابع الدستر التجارية، الأردن، 2000

46- سالم السيد عبد العزيز، في تاريخ وحضارة الاسلام في الاندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1975

47- سعيدوني ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1999

48- بن عبود امحمد، مباحث في التاريخ الأندلسي ومظاهره، مطبعة عكاظ، الرباط، 1989

49- عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، مطبعة المدني، ط4، القاهرة، 1997، ج4

الرسائل :

50- مسعودي مريم و تمرجانت دليلة و بن عيدة خيرة، إسهامات لسان الدين بن الخطيب في التأريخ للحياة الإجتماعية والثقافية في بلاد الأندلس (القرن 8هـ/14م)، مذكرة شهادة الماستر، جامعة ابن خلدون، تيارت، 2018/2017

51- حدود داوود الحسين، لسان الدين بن الخطيب، رسالة ماجستير، جامعة بنغازي، ليبيا

52- طواهري عبد الحميد و عبد اللطيف قحفص، اغتيال لسان الدين بن الخطيب في رمزية العلاقة بين السياسي العالم السلطة، مذكرة ماستر، 2020/2019

53- ساجد مخلف حسن، لسان الدين بن الخطيب حياته ومنهجه في كتابة نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، قسم التاريخ، كلية التربية، جامعة سامراء، العراق، 2013

54- روني بيراز، قراءة في كتاب روضة التعريف بالحب الشريف، ترجمة أحمد عمراني، رسالة دكتوراه، جامعة ليون، فرنسا، 1981

المقالات :

55- الطيبي أمين توفيق، لسان الدين بن الخطيب مؤرخ ثبت لفترة ملوك الطوائف بالأندلس –القرن الخامس هجري –الحادي عشر ميلادي، مجلة كلية الآداب، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، تطوان، المغرب، 1408-1987 ، العدد 2

56- الطريسي أحمد، شاعرية ابن الخطيب، مجلة كلية الآداب، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، تطوان، المغرب، 1408-1987 ، العدد 2

57- التازي عبد الهادي، ابن الخطيب سفيرا ولاجئا سياسيا، مجلة كلية الآداب، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، تطوان، المغرب، 1408-1987 ، العدد 2

58- زمامة عبد القادر، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1996، العدد 28

59- عيساوة محمد، الوشاية وأثرها في نكبة رجال الفكر بالأندلس–نكبتي ابن رشد وابن الخطيب نموذجا–، المجلة التاريخية الجزائرية، 2021، العدد2

60- رزق عمري بركات، رسائل ابن الخطيب السلطانية: دراسة تحليلية، مجلة الدراسات التربوية والإنسانية، جامعة دمنهور، مصر،2013 ، العدد31

61-تيسيي جون فرنسوا, لسان الدين بن الخطيب رائد الصحة العامة، ترجمة مصطفى اكن ومساعدة مصطفى آيت يدير ومحمد إبوعجبان، المجلة الصحة المغربية، 2013، العدد5

الملاحق

الملحق (01)

من رسائل لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه يوسف بن أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر:

من الأمير عبدالله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج ابن نصر. إلى محل أخينا، الذى نثنى على مجادته أكرم الثنا ونجدد ما سلف بين الأسلاف الكرام من الولاء، وتتحفه من سعادة الإسلام وأهله، بالأخبار السَّارة والأنباء. السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا. أبقاه الله رفيع المقدار، كريم المآثر والآثار، وعرَّفنا من عوارف فَضْله. كل مُشْرق الأنوار. كفيل بالحُسنى وعُقبى الدار. سلام كريم يخص جلالكم الأرفع، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حَمْدِ الله على عَمِيم آلائه، وجزيل نعمائه، مُيسر الصعب بعد إبائه، والكفيل بتقريب الفَرَج وإدنائه، له الحمد والشكر ملء أرضه وسمائه، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله الكرام وأنبيائه، الهادى إلى سبيل الرشد وسوائه، مُطلع نور الحق يخلو ظُلم الشَّك بضيائه. والرضا عن آله وأصحابه وأصهاره وأحزابه وخلفائه السائرين في الدُّنيا والآخرة تحت لوائه، الباذلين نفوسهم في إظهار دينه القويم وإعلائه، والدُّعا لمقامكم بتيسير أمله من فضل الله سبحانه ورجائه، واختصاصه بأوفر الحظوظ من اعتنائه. فإنَّا كتبناه إليكم كتبكم الله فيمن ارتضى قوله وعمله من أوليائه، وعرفكم عوارف السعادة المعادة في نهاية كل أمر وابتدائه.

من حمراء غرناطة حرسها الله، ولا زائد بفضل الله سبحانه، ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم الذى أوضح برهانه، وعظم أمره ورفع شأنه ثم بما عندنا من الوُدُّ الكريم، وتجديد العهد القديم لمقامكم، أعلى الله سلطانه، إلا الخير الهامى السَّحاب، واليُسر المبين الأسباب، واليمن المفتّح الأبواب والسعد الجديد الأثواب، ومقامكم معتمد

بترفيع الجناب، متعهد بالود الخالص والاعتقاد اللُّباب، معلوم ماله من فضل الدين وأصالة الأحساب. وإلى هذا وصل الله لكم سعداً مديد الأطناب، ثاقب الشَّهاب، وأطلع عليكم وجوه البشائر سافرة النقاب. فإنه قد كان بلغكم ما آلت الحال إليه بطاغية قشتالة، الذي كلِب على هذه الأقطار، الغريبة من وراء البحار، وما سامها من الإرهاق والأضرار وأنه جرى في ميدان الإملاء والأغترار، ومحص المسلمين على يديه بالوقائع العظيمة الكبار، وأنه نكث العهد الذى عقده، وحل الميثاق الذى أكده، وحمله الطمع الفاضح على أن أجلب على بلاد المسلمين بحياه ورجله، ودهمها بتيار سيله وقطع ليله، وأَمل أن يستولى على جَبَل الفتح ، الذى منه بدأ فتحها، وطلع للملة المحمدية صبحها، فضَيَّقه حصاراً، واتخذه داراً، وعندما عظم الإشفاق، واظلمت الآفاق، ظهر فينا بقدرة الله ، الصنع العجيب، ونَزَل الفرج القريب، وقبل الدُّعا السميعُ المجيب، وطرق الطاغية جُندٌ من جنود الله ، أَخَذَه أخذةً رابية، ولم يبق له من باقية، فهلك على الجَبَل حَتَّف أنفه، وغالته غوائل حتفه، فتفرقت جموعه وأحزابه، وانقطعت أسبابه، وتعجل لنار الله مآبه، وأصبحت البلاد مُسْتَبْشرة، ورحمة الله مُنتشرة، فرأينا أن هذه البشارة التي يأخذ كل مسلم منها بالنصيب الموفور، ويشارك فيا جلبته من الشرور، أنتم أولى من تتحفه بطيب ريَّاها، ونُطْلع عليه جميل محياها، لما تقرر عندنا من دينكم المتين، وفضلكم المبين، وعملكم من المساهمة، على شاكلة صالحي السلاطين، فما ذاك إلا بفضل نيتكم للمسلمين في هذه البلاد، وأثر ما عندكم من جميل الاعتقاد. وقد ورد رسولنا عليكم، القائد أبو عبد الله بن أبي الفتح أعزه الله ، مقرراً ما لديكم من الود الراسخ القواعد، والخلوص الصافي الموارد الواضح الشواهد، وأثنى على مكارمكم الأصيلة، وألقى ما عندكم من المذاهب الجليلة، فقابلنا ذلك بالشكر الذى يتصل سببه، ويتضح مذهبه، وسألنا الله بأن يجعله وُدًّا في ذاته، ووسيلة إلى مرضاته، وتعرفنا ما كان من تفضلكم بالطريرة المفتوحة الموخر، وما صدر عن الرئيس المعروف بالناظر من خدام دار الصنعة بالمريَّة من قبح محاولته وسوء معاملته، فأمرنا بقطع جرايته وثقافه بمطمورة القصبة، جزاء لجنايته، ولولا أننا توقعنا أن يكون

عظيم عقابه مما لا يقع من مقامكم بوفقه [لمشهور عفافه ورِفْقه]. لجعلناه نكالا الأمثاله، وعبرة لأشكاله، وقد وجهنا جَفْنًا سفرياً لإيساق الخيل التي ذكرتم، وإيصال ما إليه من ذلك أشرتم، ويكمل القصد إن شاء الله تحت لحظ اعتنائكم وفضل ولائكم. هذا ما تزيد عندنا عرفناكم به عملاً. عملاً على شاكلة الود الجميل، والولاء الكريم الإجمال والتفصيل، فعرفونا بما تزيد عندكم يكون من جملة أعمالكم الفاضلة، ومكارمكم الحافلة. والله يصل سعدكم، ويحرس مجدكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.[1]

[1] ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، المصدر السابق، ج1، ص517

الملحق (02)

قصيدة غرناطة

جَزَتْنـيَ غَرْناطَـةٌ بعْدَ مـــا ... جَـلَوْتُ مَـحاسِنَه بـالجَـــــلا

ولمْ تُبْقِ جاهاً ولا حُرْمَـــةً ... ولمْ تُبْقِ مالاً ولا منْـــــــزِلا

كأنّي انْفرَدْتُ بقَتْلِ الحُسَـيْنِ ... وجرّدْتُ سَيْفـيَ فـي كَرْبَـــلا

ولمْ أجْنِ ذَنْباً سِوى أنّنـــي ... صدَعْتُ بأمْداحِها فـي المَـلا

وأنّـيَ صنّفْتُ فيها الغَريــبَ ... فصِرْتُ الغَريبَ أجوبُ الفَــلا

يَميناً لقَدْ أنْكَرَتْ ما جَــرى ... نُفوسُ الوَرى وأبَتْهُ العُـــــلا

وما خَصّني زمَني بالعُقوقِ ... فكَمْ رِيءَ منْ فاضِلٍ مُبْتَلَـــى

وإنْ ظَـهَرَتْ نِعْـــمَةٌ للإلاهِ ... عليَّ فأُلْبِسْتُ منْها حُـــــلا

وإنْ قرّبَتْني المُلوكُ الكِــرامُ ... يُـقَـلِّدُ آخـرُهـــــــــا الأُوَلا

وإنْ مكّنَتْني منْ أمْرِهـــا ... فشِمْتُ السّيوفَ وصُنْتُ الطّلا

وقابَلْتُ بالشّكْرِ منْها الصّنيعَ ... وحاشا لمِثْليَ أن يُثْقِـــــلا

فأُقسِمُ باللهِ لوْلا أنـــــوفٌ ... لجَرّدْتُ منْ مِقْوَلي مُنْصُـلا

فيَتْرُكُ في النّاسِ أمْثـــالَهُ ... تُحدِّثُ لي رَغْمَ أنْفِ البِـــلا

ولا خلْقَ أجْهَلُ ممّن يظُنّ ... بمِقْدارِ مِثْليَ أنْ يجْهَـــــلا

إذا ما ركِبْتُ الدُّجا إذْ سَما ... يقَلِّدُ للنّجْمِ نضْرَ الحُـــــلا

وكانَ لِسانيَ سيْفاً صَقيلاً وكانَتْ يَراعي قَناً ذُبَّـــــلا

ولكِنْ لَقيتُ بصَبْرٍ جَميلٍ قضاءَ الذي لمْ يزَلْ مُجْمَــلا

وحاسَبْتُ نفْسيَ فيما أمَرَّ فألْفَيْتُهُ البَعْضَ ممّا حَـــلا

وأسْكَنْتُ ثأرِيَ لمّا دَعــا وأسْكَنْتُ بأسيَ لمّا غَـــــلا

سَلامٌ علَيْها وإنْ أخْفَرَتْ ذِمامي ووُدّي جزَتْ بالقِـــلا

وألْبَسْتُها الأمْنَ سِتْراً حَصيناً وإنْ هتَكَتْ سِتْريَ المُسْبَـــلا

ومِثْليَ يبْقَى علَى عهْدِهِ إذا أعْرَضَ الخِلُّ أو أقْبَـــلا[1]

[1]ابن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني، المصدر السابق، ج1، ص773

الملحق (03)

قصيدة لسان الدين بن الخطيب يرثي فيها زوجته

رَوَّعَ بَالِي وَهَاجَ بَلْبَالِـــــــــي وَسَامَنِي التَّكْلَ بَعْدَ إِقْبَـــــالِ

ذَخِيرَتِي حِينَ خَانَنِي زَمَنِـــــي وَعُدَّتِي فِي اشْتِدَادِ أَهْـــــوَالِ

حَفَرَتُ فِي دَارِيَ الضَّرِيحَ لَـــهَا تَعَلُّلاً بِالْمُحَالِ فِي الْحَـــــالِ

وَغِبْطَةً تُوهِمُ الْمُقَامَ مَعِـــــــي وَكَيْفَ لِي بَعْدَهَا بِإِمْهَـــــالِ

سَقَى الْحَيَا قَبْرَك الْغَرِيـــــبَ وَلاَ زَالَ مُنَاخاً لِكلِّ هَـــــــطَّالِ

قَدْ كُنْتِ مَالِي لَمَّا اقْتَضَى زَمَنِي ذَهَابَ مَالِي وَكُنْتِ آمَالِـــــي

اَمَّا وَقَدْ غَابَ فِي تُرَابِ سَـــلاَ وَجْهُكِ عَنِّي فَلَسْتُ بِالسَّالِـــي

وَاللَّهِ حُزْنِي لاَ كَانَ بَعْدُ عَلَـــى ذَاكَ الشَّبَابِ الْجَدِيدِ بِالْبَالِـــي

فَانْتَظِرِينِي فالشَّوقُ يُقْلِقُنِـــــي وَيَقْتَضِي سُرَعَتِي وَإِعْجَالِـــي

وَمَهِّدِي لِي لَدَيْكِ مُضْطَجَعَـــاً فَعَنْ قَرِيبٍ يَكُونُ تَرْحَالِـــي

وَاسْمُكِ مَقْلُوبُهُ يُبَيِّنُ لِـــــــي مَآلَ أَمْرِي فِي مَعْرِضِ الْفَالِ[1]

[1] ابن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني، المصدر السابق، ج1، ص505

الملحق (04)

قصيدت ابن الخطيب عند زيارته لقبر المعتمد بن عباد

قدْ زُرْتُ قَبْرَكَ عنْ طَوْعٍ بأغْمــاتِ رأيْتُ ذلِكَ منْ أوْلَى المُهِمّـــاتِ

لِمْ لا أزُورُكَ يا أنْدَى المُلوكِ يَــداً ويا سِراجَ اللّيالي المُدْلَهِمّـــاتِ

وأنْتَ مَنْ لَوْ تخَطّى الدّهْرُ مَصْرَعَهُ الى حَياتي أجادَتْ فيهِ أبْياتِـــي

أنافَ قَبْرُكَ في هَضْبٍ يَمـــيزُهُ فتَنْتَمِيهِ حَفِيّاتُ التّحِـــــيّاتِ

كرُمْتَ حَيّاً ومَيْتاً واشْتَهرْتَ عُــلاً فأنْتَ سلْطانُ أحياءٍ وأمْـــواتِ

ما رِيءَ مِثْلُكَ في ماضٍ ومُعْتَقَدِي أنْ لا يُرى الدّهْرُ في حالٍ وفي آتِي[1]

[1] ابن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني، المصدر السابق، ج1، ص182

الملحق (05)

قصيدة ابن الخطيب يهنىء فيها السلطان أبا سالم بفتح تلمسان

أَطَاعَ لِسَانِي فِي مَدِيحِكَ إِحْسَانِـــي وَقَدْ لَهِجَتْ نَفْسِي بِفَتْحِ تِلِمْسَـــــانِ

فَأَطْلَعْتُهَا تَفْتَرُّ عَنْ شَنَبِ الْمُنَـــــى وَتُسْفِرُ عَنْ وَجْهٍ مِنْ السَّعْدِ حُسَّـانِ

كَمَا ابْتَسَمَ النَّوارُ عَنْ أَدمُعِ الْحـــيَا وَجَفَّ بِخَدِّ الْوَرْدِ عَارِضُ نِيسَـــانِ

كَمَا صَفَّقَتْ رِيحُ الشَّمَالِ شَمُولَـــهَا فَبَانَ ارْتِيَاحُ السكْرِ فِي غُصُنِ الْبَانِ

تُهَنِّيكَ بِالْفَتْحِ الَّذِي مُعْجِـــــــزَاتُهُ خَوَارِقُ لَمْ تُدْخَرْ سِوَاكَ لِإِنْـــــــسَانِ

خَفَقْتَ إِلَيْهَا وَالْجُفُونُ ثَقِيلَـــــــــةٌ كَمَا خَفَّ شَتْنُ الْكَفِّ مِنْ أَسْدِ خَفَّانِ

وَقُدْتَ إِلَى الأَعْدَاءِ فِيهَا مُبَـــــادِراً لُيُوثَ رَجَالٍ فِي مَنَاكِبِ عِقْبَـــــانِ

تَمُدُّ بُنُودُ النَّصْرِ مِنْهُمُ ظِلاَلَـــــهَا عَلَى كُلِّ مِطْعَامِ الْعَشِيَّاتِ مِطْعَـــانِ

جَحَاجِحَةٌ غُرُّ الْوَجُوهِ كَأَنَّمـــــــا عَمَائِمُهُم فِيهَا مَعَاقِدُ تِيجَـــــــــانِ

أمدك فيها الله بالملإ العلـــــــى فجيشك مهما حقق الأمر جيشـــان

لَقَدْ جُلِيَتْ مِنْكَ الْبِلاَدُ لِخَاطِـــــبٍ لَقَدْ جُنِيَتْ مِنْكَ الْغُصُونُ إِلَى جَانِـــي

لَقَدْ كَسَتِ الإِسْلاَمَ بِيْعَتُكَ الرِّضَـــا وَكَانَ عَلَى أَهْلِيهِ بَيْعَةَ رِضْـــــــوَانِ

وَلِلَّهِ مِنْ مُلْكٍ سَعِيدٍ وَنَصْـــــــبَةٍ قَضَى الْمُشْتَرِي فَيهَا بِعُزْلَةِ كِيَـــوانِ

وَسَجَّلَ حُكْمَ الْعَدْلِ بَيْنَ بِيُوتِـــــهَا وُقُوفاً مَعَ الْمَشْهُورِ مِنْ رَأْيِ يُونَـــانِ

فَلَمْ تَخْشَ سَهْمَ الْقَوْسِ صَفْحَةُ بَدْرِهَا وَلَمْ تَشْكُ فِيهَا الشَّمْسِ مِنْ نَحْسِ مِيزَانِ

وَلَمْ يَعْتَرِضْ مُبتَزَّهَا قَطْعُ قَاطِـــعٍ وَلاَ نَازَعَتْ نَوْبَهْرَهَا كَفُّ عُـــــــدْوَانِ

تَوَلَّى اخْتِيَارُ اللَّهِ حُسْنَ اخْتِيَارِهَـــا فَلَمْ يَحْتَجِ الْفَرْغَانِ فِيهَا لِفَرْغَانِـــــــي

وَلاَ صُرِفَتْ فِيهَا دَقَائِقُ نِسْبَـــــــةٍ وَلاَ حُقِّقَت فِيهَا طَوَالِعُ بُلـــــــــــدَانِ

وُجُوهُ الْقَضَايَا فِي كَمَالِكَ شَأْنُـــــهَا وُجُوبٌ إِذَا خَصَّتْ سِوَاكَ بِإِمْكَـــــانِ

وَمَنْ قَاسَ مِنْكَ الْجُودَ بِالْبَحْرِ وَالْحَيَا فَقَدْ قَاسَ تَمْوِيهاً قِيَاسَ سُفْسَطَانِـــــي

وَطَاعَتُك الْعُظْمَى بِشَارَةُ رَحْمَـــــةٍ وَعِصْيَانُكَ الْمَحْذُورُ نَزْغَةُ شَيْـــــطَانِ

وَحُبُّك عُنْوَانُ السَّعَادِةِ وَالرِّضَـــــا وَيُعْرَفُ مِقْدَارُ الْكِتَابِ بِعُنْـــــــوَانِ

وَدِينُ الْهُدَى جِسْمٌ وَذَاتُكَ رُوحُـــهُ وَكَمْ وَصْلَةٍ مَا بَيْنَ رُوحٍ وَجُثْمَـــــانِ

تَضِنُّ بِكَ الدُّنْيَا وَيَحْرُسُكَ الْعُـــلا كَأَنَّكَ مِنْهَا بَيْنَ لَحْظٍ وَأَجْفـــــــــاَنِ

بَنَيْتَ عَلَى آسَاسِ أَسْلاَفِكَ الْعُلَـــى فَلاَ هُدِمَ الْمَبْنَى وَلاَ عُدِمَ الْبَانِـــــــي

وَصَاحَتْ بِكَ الْعُلْيَا فَلَمْ تَكُ غَافِـلاً وَنَادَتْ بِكَ الدُّنِيَا فَلَمْ تَك بِالْوَانِـــــي

وَلَمْ تَكُ فِي خَوْضِ الْبِحَارِ بِهَائِـبٍ وَلَمْ تَكُ فِي رَوْمِ الْفخَارِ بِكَسْـــــــــلاَنِ

لَقَدْ هَزَّ مِنْكَ الْعَزْمُ لمَّا انْتَضَيْتَـــهُ ذَوَائِبَ رَضْوَى أَوْ مَنَاكِبَ ثَهْـــــــلاَنِ

وَلِلَّهِ عَيْناً مَنْ رَآهَا مَحَلّـــــــــةً هِيَ الْحَشْرُ لاَ تُحْصَى بِعَدٍّ وَحُسْبَـــانِ

وَتَثُّورُ عَزْمٍ فَارَ فِي إِثْرِ دَعْـــــوَةٍ يَعُمُّ الأَقَاصِي وَالأَدَانِي بِطُوفَـــــــانِ

عَجَائِبُ أَقْطَارٍ وَمألَفُ شَـــــارِدٍ وَأَفْلاَذُ آفَاقٍ وَمَوْعِدُ رُكْبَـــــــــانِ

إِذَا مَا سَرَحْتَ اللَّحْظَ فِي عَرَصَاتِهَا تَبَلَّدَ مِنْكَ الذِّهْنُ فِي الْعَالِمِ الثَّانِـــي

جَنىً حَانَ وَالنَّصْرُ الْعَزِيزُ اهْتِصَارُهُ إِذَا انْتَظَمَتْ بِالقَلْبِ مِنْهَا جَنَاحَــانِ

فَمِنْ سُحُبٍ لاَحَتْ بِهَا شُهُب الْقَنَــا وَمِنْ كُتُبٍ بِيضٍ بَدَتْ فَوْقَ كُثْبَــانِ

مَضَارِبُ فِي الْبَطْحَاءِ بِيضٌ قِبَابُــهَا كَمَا قُلِبَتْ لِلْعَيْنِ أَزْهَارُ سُوسَـــانِ

وَمَا إِنْ رَأَى الرَّاؤُون فِي الدَّهْرِ قَبْلَهَا قَرَارَةَ عِزٍّ فِي مَدِينَةِ كَتَّـــــانِ

تَفُوتُ الْتِفَاتَ الطَّرْفِ حَالَ اقْتِفَالِــهَا كَأَنَّكَ قَدْ سَخَّرْتَ جِنَّ سُلَيْمَـــانِ

فَقَدْ أَطْرَقَتْ مِنْ خَوْفِهَا كُلُّ بَيْعَـــةٍ وَطَأْطَأَ مِنْ إِجْلاَلِهَا كُلُّ إِيـــوَانِ

وَقَدْ ذُعِرَتْ خَوْلاَنُ بَيْنَ بُيُوتِـــــهَا غَدَاةَ بَدَتْ مِنْهَا اللُّيُوثُ بِخَـــوْلاَنِ

فَلَوْ رُميتْ مِصْرٌ بِهَا وَصَعِيدُهَـــا لأَضحَتْ خَلاَءً بَلْقَعاً بَعْدَ عُمْـرَانِ

وَلَوْ يَمَّمَتْ سَيْفَ بْنَ ذِي يَزَنٍ لَمَــا تَقَرَّرَ ذَاكَ الْغِمْدُ فِي غِمْدِ غُمْـدَانِ

وَتُجْفَلُ إِجْفَالَ النَّعَامِ بِبَرْقَـــــةٍ لُيُوثُ الشَّرَى مَا بَيْنَ تُرْكٍ وَعُرْبَـانِ

وَعَرْضاً كَيَوْمِ الْعَرْضِ أَذهَلَ هَوْلَــهُ عِيَانِي وَأَعْيَانِي تَعَدُّدُ أَعْيَانِـــــي

وَجَيْشاً كَقِطْعِ اللَّيْلِ لِلْخَيْلِ تَحْتَــــهُ إِذَا صَهَلَتْ مُفَتَّةً بِرَجْعِ أَلْحَـــانِ

فَيُومِضُ مِنْ بِيضِ الظُّبَا بِبَـــوَارِقٍ وَيَقْذِفُ مِنْ سُمْرِ الرِّمَاحِ بِشُهْـبَانِ

وَيُمْطِرُ مِنْ وَدْقِ السِّهَامِ بِحَاصِـــبٍ سَحَائِبُهُ مِنْ كُلِّ عَوْجَاءَ مِرْنَـــانِ

وَجُرْداً إِذَا مَا ضُمِّرَت يَوْمَ غَـــارَةٍ تَعَجَّبْتَ مِنْ رِيحٍ تُقَادُ بِأَرْسَـــانِ

تُسَابِقُ ظِلْمَانَ الفَلاَةِ بِمِثْلِـــــهَا وَتُذْعِرُ غِزْلاَنَ الرِّمَـــــالِ بِغِزْلاَنِ

وَدُونَ مَهَبِّ الْعَزْمِ مِنْكَ قَوَاضِـــبٌ أَبَى النَّصْرُ يَوْماً أَنْ تُلِمَّ بِأَجْفَـــانِ

نَظَرتُ إِلَيْهَا وَالنَّجِيعُ لِبَاسُـــــهَا فَقُلْتُ سُيُوفٌ أَمْ شَقَائِقُ نُعْمَـــــانِ

تَفَتَّحَ وَرْداً خَدُّها حِينَ جُـــرِّدَتْ وَلاَ يُنْكِرُ الأَقْوَامُ خَجْلَة عُرْيَـــــانِ

كَأَن الْوَغَى نَادَتْ بِهَا لِوَلِيمَـــةٍ قَدِ احْتَفَلَتْ أَوْضَاعُهَا مُنْذُ أَزْمَـــــانِ

فَإِنْ طَعِمَتْ بِالنَّصْر كَانَ وُضوءُهَا نَجِيعاً وَوَافَاهَا الْغُبَارُ بِأُشْنَـــــــانِ

لَقَدْ خَلَصَتْ لِلَّهِ مِنْكَ سَجِيَّـــةٌ جَزَاكَ عَلَى الإِحْسَانِ مِنْكَ بِإِحْسَـــانِ

فَسَيْفُكَ لِلْفَتْحِ الْمُبِينِ مُصَاحِـبٌ وَعَزْمُكَ وَالنَّصْرُ الْمُؤَزَّرُ إِلْفَـــــانِ

فَرُحْ وَاغْدُ لِلرَّحْمَانِ تَحْتَ كَلاَءَةٍ وَسَرْحَانَ فِي غَابِ الْعِدَى كُلَّ سِرْحَانِ

وَكُنْ وَاثِقاً بِاللَّهِ مُسْتَنْصِراً بِـــهِ فَسُلْطَانُهُ يُعْلُو عَلَى كُلِّ سُلـــــطَانِ

كَفَاكَ الْعِدَى كَافٍ لِمُلْكِكَ كافِلٌ فَضِدُّكَ نِضْوٌ مَيِّتٌ بَيْنَ أَكْفَـــــانِ

رِضَا الْوَالِدِ الْمَوْلَى أَبِيكَ عَرَفْتَهُ وَقَدْ أُنْكِرَ الْمَعْرُوفُ مِنْ بَعْدِ عِرْفَـانِ

فَكَمْ دَعْوَةٍ أَوْلاَكَ عِنْدَ انْتِقَالِـــهِ إِلَى الْعَالَمِ الْبَاقِي مِنَ الْعَالَمِ الْفَانِـــي

فَعُرِّفْتَ فِي السَّرَّاءِ نِعْمَةَ مُنْعِـمٍ وَأُلْحِفْتَ فِي الضَّرَّاءِ رَحْمَةَ رَحْمَـــانِ

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِي الْفَخَارَ بِدَعْوَةٍ مُجَرَّدَةٍ مِنْ غَيْرِ تَحْقِقِ بُرْهَـــانِ

وَسُنَّةُ إِبْرَاهِيمَ فِي الْفَخْرِ قَدْ أَتَتْ بِكُلِّ صَحِيحٍ عَنْ عَلِيٍّ وَعُثْمَـــانِ

وَمَنْ مِثْلُ إِبْرَاهِيمَ فِي ثَبْتِ مَوْقِفٍ إِذَا مَا الْتَقَى فِي مَوْقِف الْحَرْبِ صَفَّانِ

إِذَا هَمَّ لَمْ يَلْفِتْ بِلَحْظَةِ هَائِـبٍ وَإِنْ مَنَّ لَمْ يَنْفُثْ بِلَفْظَةِ مَنَّـــــانِ

فَصَاحَةُ قُسٍّ فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ وَإِقْدَامِ عَمْرٍو تَحْتَ حِكْمَةِ لُقْمَـــانِ

شَمَائِلُ مَيْمُونِ النَّقِيبَـــــةِ أَرْوَعٌ ... لَهُ قَصَبَات السَّبْقِ فِي كُـــلِّ مَيْدَانِ

مَحَبَّتُهُ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِـمٍ ... وَطَاعَتُهُ فِي اللهِ عُقْدَةُ إِيمَـــــانِ

هَنِيئاً أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ بِمِنَّـــةٍ ... حُبِيتَ بِهَا مِنْ مُطْلَقِ الْجُودِ مَنَّانِ

لَزَيَّنْتَ أَجْيَادَ الْمَنَابِرِ بِالَّتِـــي ... أَتَاحَ لَهَا الرَّحْمَانُ مِنْ آلِ زِيَّـــانِ

قَلاَئِدُ فَتْحٍ هُنَّ لَكِنَّ قَدْرَهَـــــا ... تَرَفَّعَ أَنْ يُدْعَى قَلاَئِدَ عِقْيَـــــانِ

أَمَوْلاَيَ حُبِّي فِي عُلاَكَ وَسِيلَتِي ... وَلُطْفُكَ بِي دَأْباً بِحَمْدِكَ أَغْرَانِـــي

أَيَادِيكَ لاَ أَنْسَى عَلَى بُعْدِ الْمَدَى ... نَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ شَرِّ نِسْيَـــانِ

فَلاَ جَحْدَ مَا خَوَّلْتَنِي مِنْ سَجَّيتِي ... وَلاَ كُفْرَ نُعْمَاكَ الْعَمِيمَةِ مِنْ شَانِي

وَمَهْمَا تَعَجَّلتُ الْحُقُوقَ لأَهْلِـهَا ... فَإِنَّكَ مَوْلاَيَ الْحَقِيقُ وَسُلْطَانِـــي

وَرُكْنِي الَّذِي لَمَا نَبَا بِي مَنْزِلِـي ... أَجَابَ نِدَائِي بِالْقَبُولِ وَآوَانِـــــي

وَعَالَجَ أَيَّامي وَكَانَتْ مَرِيضَـــةً ... بِحِكْمَةِ مَنْ لَمْ يَنْتَظِرْ يَوْمَ بُحْـرانِ

فَأَمَّنَنِي الدَّهْرُ الّذِي قَدْ أَخَافَنِـي ... وَجَدَّدَ لِي السَّعْدَ الَّذِي كَانَ أَبْلاَنِي

وَخَوَّلَنِي الْفَضْلَ الَّذِي هُوَ أَهْلُـهُ ... وَشِيكاً وَأَعْطَانِي فَأَفْعَمَ أَعْطَانِـــي

تَخَوَّنَنِي صَرفُ الْحَوَادِثِ فَانْثَنَى ... يُقَبِّلُ أَرْدَانِي وَمِنْ بَعْدُ أَرْدَانِـــــي

وَأَزْعَجَنِي مِنْ مَنْشَـــأي وَمُبَوَّأي ... وَمَعْهَدِ أَحْبَابِي وَمَأْلَفِ جِيرَانِـــي

بِلاَدِي الَّتِي فِيهَا عَقَدْتُ تَمَائِمِي ... وجمَّ بِهَا وَفْرِي وَجَلَّ بِهَا شـــانِي

تُحَدِّثُنِي عَنْهَا الشَّمَالُ فَتَنْثَنِـــي ... وَقَدْ عَرَفتْ مِنِّي شَمَـــــائِلَ نَشْوَانِ

وَآمُلُ أَنْ لاَ أَسْتَفِيقَ مِنَ الْكَــرَى ... إِذَا الْحُلْمُ أَوْطَانِي بِهَا تُرْبَ أَوْطَانِي

تَلَوَّنَ إِخوَانِي عَلَيَّ وَقَدْ جَنَــتْ ... عَليَّ خُطُوبٌ جَمَّةٌ ذَاتُ أَلْــــوَانِ

وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ أَنْ يَتَنَكَّــرُوا ... بِأَنَّ خِوَانِي كَانَ مَجْمَعَ خَوَّانِـــي

وَكَانَتْ وَقَدْ حُمَّ القَضَاءُ صَنَائِعِي ... عَلَيَّ بِمَا لاَ أَرْتَضِي شَرَّ أَعْوَانِـــي

فَلَوْلاكَ بَعْدَ اللهِ يَا مَالِكَ الْعُلَــى ... وَقَدْ فُتُّ مَا أَلْفَيْتُ من يَتَلاَفَانِـــي

تَدَارَكْتَ مِنِّي بالشَّفَاعَةِ مُنْعِــماً ... بَرِيئاً رَمَاهُ الدَّهْرُ فِي مَوْقِفِ الْجَانِـي

فَإِنْ عَرَفَ الأَقْوَامُ حَقَّكَ وُفِّــقُوا ... وَإِنْ جَهِلُوا بَاءُوا بِصَفْقَةِ خُسْــرَانِ

وَإِنْ خَلطَوُا عُرفاً بنُكْرٍ وَقَصَّـرُوا ... وَزَنْتَ بِقِسْطَاسٍ قَوِيمٍ وَمِيــــزَانِ

وَحُرمَةُ هَذَا اللَّحْدِ يَأْبَى كَمَــالُهَا ... هَضيمَةَ رَدٍّ أَوْ حَطِيطَةَ نُقْصَــانِ

وَقَدْ نِمْتُ عَنْ أَمري وَنبَّهْتُ هِمَّة ... تُحَدِّقُ مِنْ عُلْوٍ إِلَى صَرْحِ هَامَــانِ

إِذَا دَانَتِ اللَّهَ النُّفُوسُ وَأَمَّلَــتْ ... إِقَالَةَ ذَنْبٍ أَوْ إِنَالَةَ غُفْــــــرَانِ

فَمَوْلاَكَ يَامَوْلاَيَ قِبْلَةُ وِجْهَتِـــي ... وَعُهْدَةُ أَسْرَارِي وَحُجَّةُ إِعْلاَنِـــي

وَقَفْتُ عَلَى مَثْوَاهُ نَفْسِي قَائِمــا ... بِتَرْدِيدِ ذِكْرٍ أَوْ تِلاَوَةِ قُرْآنِـــي

وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي فَوْقَهَا مِنْ وَسِيلَـةٍ ... إِلَى مُلْكِكَ الأَرْضَى لَشَمَّرْتُ أَرْدَانِي

وَأَبْلَغْتُ نَفسِي جُهْدَهَا غَيْرَ أَنَّنِـي ... طِلاَبِي مَا بَعْد النِّهَايَة أَعْيَانِـــي

قَرَأْتُ كِتَابَ الْحَمْدِ فِيكَ لِعَاصِـمٍ ... فَصَحَّ أَدَائِي وَاقْتِدَائِي وَإِتْقَانِـــي

فَدُونَكَهَا مِنْ بَحْرِ فِكْرِيَ لُؤلـــؤاً ... يُفَصَّلُ مِنْ حُسْنِ النِّظَامِ بِمَرْجَــانِ

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ بِالشِّعْرِ يَعْتَنِـــي وَكَمْ حُجَّةٍ فِي شِعْرِ كَعْبٍ وَحَسَّـانِ

وَوَاللَّهِ مَا وَفَّيتُ قَدْرَكَ حَقَّـــــهُ وَلَكِنَّهُ وُسْعِي وَمَبْلَغُ إِمْكَانِـــــــي[1]

[1]ابن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني، المصدر السابق، ج1، ص588

الملحق (06)

ضريح لسان الدين بن الخطيب بفاس تجاه باب المحروق[1]

[1] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص45

خريطة غرناطة وبلاد المغرب

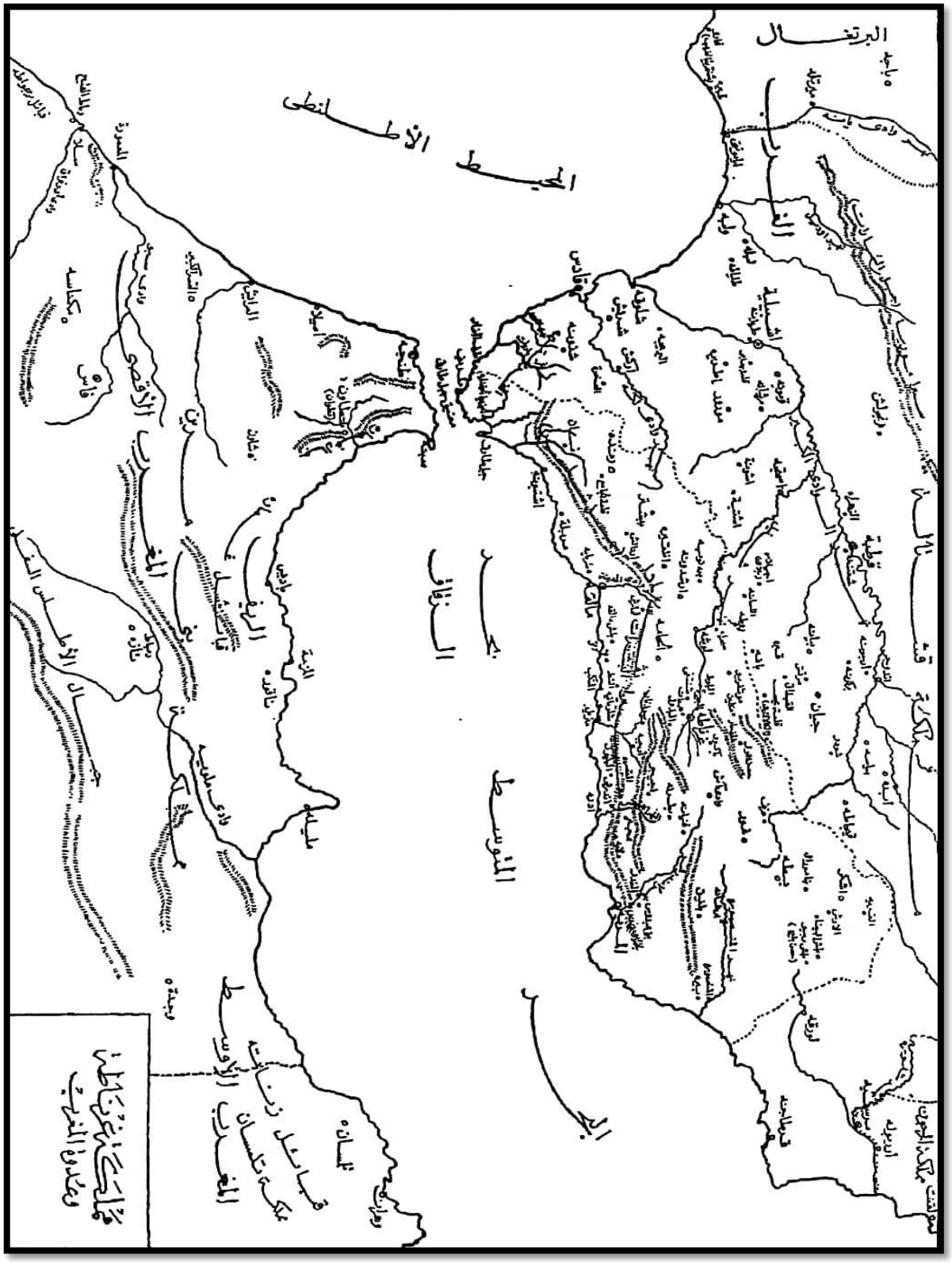

1

[1]ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص89

ملخص

يعتبر لسان الدين بن الخطيب أديب الأندلس ومؤرخها، فقد تمكن من علوم عديدة ارتفع بها شأنه، فلم تعرف الأندلس في قرونها الأخيرة أديبا ومؤرخا وسياسا ذكيا مثله. تقلد منصب الحجابة والسفارة ثم الوزارة، وكان له دور محوري في القضايا السياسية الكبرى، كما كان له إنتاج علمي كبير. وبالرغم من كل ما قدمه للأندلس وسكانها إلا أنه ذهب صريعا نتيجة الحقد والكراهية ممن كان لهم طمع في السلطة والنفوذ.

Resumer

Lisan al-Din ibn al-Khatib est considéré comme l'écrivain et l'historien de l'Andalousie, car il a pu acquérir de nombreuses sciences avec lesquelles il s'est fait connaître. Au cours des derniers siècles, l'Andalousie n'a pas connu d'écrivain, d'historien et d'homme politique intelligent comme lui. Il a occupé le poste de l'écrivain de l'État, l'ambassade, puis le ministère, et il a eu un rôle pivot dans les grandes questions politiques, et il a également eu une grande production scientifique. Malgré tout ce qu'il a donné à l'Andalousie et à ses habitants, il a était tué à cause de la haine de ceux qui avaient soif de pouvoir et d'influence.

Abstract

Lisan al-Din ibn al-Khatib is considered the writer and the historian of Andalusia, as he was able to acquire many sciences which contributed in increasing his prominence. In its last centuries, Andalusia did not encounter a writer, historian, and intelligent politician like him. He assumed the position of writing, the embassy, then the ministry, and he had a pivotal role in major political issues ; in another hand he had a great scientific production. Despite all that he gave to Andalusia and its inhabitants, he went to death as a result of the hatred of those who had greed for power and influence.